الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 8 ماي 1945 قالمة




كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعة

قسم الفلسفة

تخصص: فلسفة تطبيقية

رقم التسجيل:............

الرقم التسلسلي:..............

العنـــوان:

الجنون عند ميشال فوكو

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في الفلسفة الإجتماعبة، تخصص: فلسفة تطبيقية

اللجنة المناقشة

مشرفا	رئيسا	مناقشا
الأستاذة حبيبة دباش	فائزة شرماط	فتيحة مراح

إعداد الطالبة:

شويعل هناء

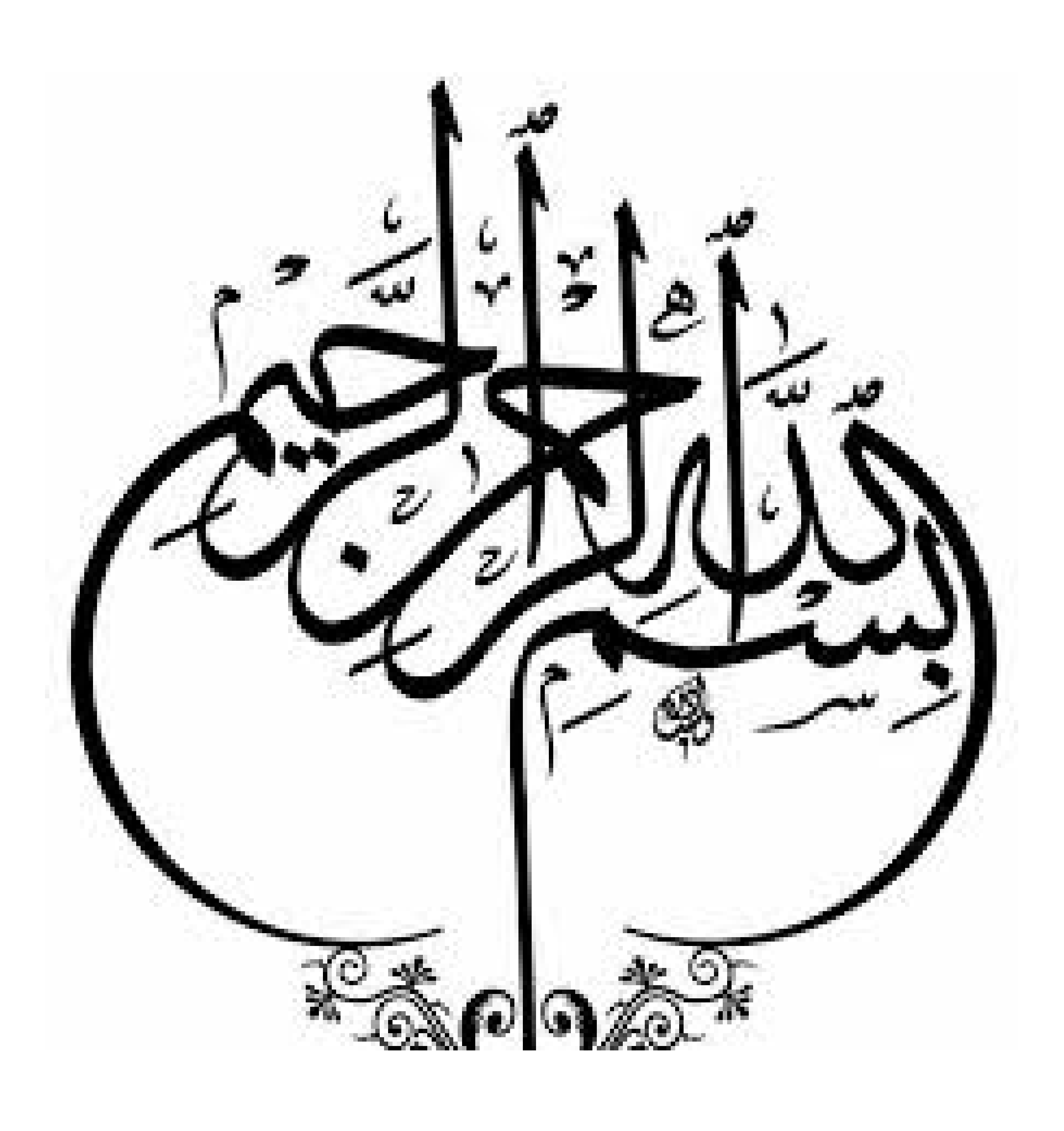
تحت إشراف:

أ. دباش حبيبة





السنة الجامعية:2019/2018


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

لك الحمد مولاي على نعمة ومن جملة قولي لك الحمد

تهرب مني كلمات الشكر حينا وتضيع مني عبارات التقدير حينا

ويقف لساني صامتا لحظة صياغة آيات العرفان كثيرة، لكن هي كلمات لابد أن تقال

شكرا .... تقدير.... وعرفان وجميل

إني على يقين ودراية بأن الكلمات الجميلة

تبقى مجرد دلالات ومعاني

وتزينا بطابع المجاملة حينا آخر، لذلك مهما اجتهدت

في انتقاء عبارات الشكر لن تكون موفية لغرضي ولا لغرضي

فأنت أساتذتي تستحقون آيات الشكر والعرفان

وألف اعتبار شكري جزيل و تقديري جميل وعرفاني

موصول لأستاذتي المشرفة "حبيبة دباش"

التي تفضلت بالإشراف على هذا البحث منذ لحظة ميلاده؛

إلى أن أستوى على عوده، بتوجيهاتها السديدة

ونصائحك الرشيدة التي علمتني قداسة اللغة

وجمال الحرف و علياء الفلسفة وعملا... قوة وفعلا... وصبرا

حنان



إهداء

الحمد لله ربي العالمين خلق الإنسان علمه البيان

- وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا *

لك الحمد، الحمد يا أرحم الراحمين يا أحكم الحاكمين وقائم بالحق فوق الخلق

أجمعين. أحمد الله بالمنطق اليقين على كرمك وعونك

قال الله تعالى "وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا"

أهدي جهدي إلى من أفنت عمرها لترسم الفرحة في عيوني

وشقت من أجل سعادتي أمي الغالية، حماك الله فأنت الشمعة التي تنير دربي

إلى تاج رأسي وينبوع عطائي إلى أبي الذي علمني أن الحياة

اجتهاد وعلمني كيف يجب أن أكون

إلى أخي الصغير وحبيب قلبي "محمد" أودينة

إلى إخوتي شكري وناصر

إلى كل الأصدقاء والأحباب وخاصة مكتبة بيروت قسنطينة

السيد حليم فاطمي وأخيرا

إلى كل سلك طريق الفلسفة أتمنى له النجاح

هناء



مدخل مفاهيمي

ميشال فوكو ومفهوم الجنون

1. التعريف بميشال فوكو
2. مفهوم الجنون
3. الجنون عند الاغريق القدامى
4. دوافع البحث في تاريخ الجنون

1. التعريف بميشال فوكو[1] Michel FOUKOU(1926-1984)

أحد أهم المفكرين المؤثرين خلال القرن العشرين، كان لأعماله أثر كبير في مجالات مثل علم الجريمة و الدراسات الثقافية والتاريخ والفلسفة، والنظرية السياسية والطب النفسي، وكذلك علم الاجتماع وكانت لدراسات "فوكو" قائمة على التخصصات المختلفة والمتضمنة قضايا مثل الجنون، والطب والمعرفة والعقاب والمؤسسات الاجتماعية.

ولد "ميشال فوكو" من أسرة ثرية في مدينة "بوانييه" الفرنسية حيث تلقى تعلميه الأول في المدارس الحكومية المحلية بباريس استعداد لدخول اختبارات الالتحاق بمدرسة نورمال العليا التي درس فيها الفلسفة وحصل منها على ليسانس الفلسفة، وهي الأطروحة التي رسخت للدكتوراه عن الجنون سنة 1971 ومنحته لقب الأستاذ في الفلسفة في جامعة "كليرمونتا" كان سبب وفاته مرض الايدز سنة 1984.

كان المجال الفكري الذي طور فيه "فوكو" أفكاره تهمين عليه أعمدة الماركسية وعلم الظاهرات تتبعت أعمال "فوكو" مبكرا أنماط الفكرية المتغيرة، فيما يتصل في أنواع المعرفة المختلفة وكانت دراسته المبكرة الأولى **الجنون والحضارة** النسخة المعدلة لأطروحاته للدكتوراه- حيث تناول العلاقة بين الجنون و السببية وقامت بدراسته للمسيحية لردود الفعل المتغيرة اتجاه الجنون وفقا للطريقة التي يتغير فيها التفكير في العقلانية بصورة حادة منذ فترة العصور الوسطى ومرورا بالتنوير وصولا للقرن التاسع عشر. أصبح "فوكو" عضوا نشاط متزايد في مثل هذه الحركات الاجتماعية في السبعينيات وشن حملات لصالح السجناء والمهاجرين والمطالبة بحقوق الشاذين في العديد من المناسبات.

إن أهم الموضوعات في أعمال "فوكو" هي " **النظام والعقاب"** الذي يمكن أن يعتبر أعظم منجزاته وهو أبعد ما يكون عن كونه كتابا في تاريخ العقاب بل هو رصد واسع النطاق لكيفية السلطة في الحداثة، أعاد "فوكو" النظر في تفكيره في الكتاب الأول من تاريخ النزعة الجِنسانية. وفيه أكد الخطأ رؤيتنا النزعة الشعبية الحديثة التي تتحدث على أن الجنس شكل من أشكال التحرر تستخدم

1- جون سكوت: خمسون عالما اجتماعيا أساسيا، المنظور المعاصرون، تر: محمد محمد حلمي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط 1، بيروت، لبنان، 2009، ص ص 290 – 299.

عبارة (تفكير المحوري التابع) لنقد النزعة الإنسانية التي ترى وجود أن يقع الوعي الإنساني في مركز التحليل الاجتماعي.

كان الهدف الرئيسي من وراء ذلك نقد النظرية الوجودية لجول بول سارتر و لم يكد "فوكو" ينشر كتابه ذائع الصيت **المراقبة والمعاقبة نشأة السجن،** حتى بدأ يعلن عن رغبته في كتابة دراسته المطولة من تاريخ الجنس، وليس من شك من أن هذه الرغبة لم تنشأ من فراغ فلقد كان "فوكو" من عشاق جورج بطاي مؤرخ ومنظر "الايروسية"[1].

2.مفهوم الجنون

أ) **لغة:** Folie نقول في اللغة العربية جنه الليل أي ستره، وأظلم عليه، وجُنَّ الرجل (في المجهول) جن وجنونا أي زال عقله أو فسد أو دخلت الجن فهو مجنون.

إن هذا المفهوم يقترب جدا من المفاهيم القديمة الشائعة في مختلف المجتمعات فالمجنون هو ذلك الإنسان الذي فقد عقله ودخلته الشياطين أي انه فقد طبيعته الإنسانية وتحول إلى كائن خطيرة قد حلت عليه اللعنة لذا كان الضرب الجسدي احد الوسائل المستخدمة لطرد الشياطين منه.

إن كلمة الجنون سبقت نشوء الطلب النفسي الذي بدأ في القرن التاسع عشر، فالجنون كلمة وهي غامضة وعي لا تمثل كيانا واضحا أي لا يوجد مرض محدد المعالم والعوارض اسمه الجنون.

الجنون ليس مرضا محدد إنه حالة مغايرة للعقل والمنطق انه بمثابة غامضة من الانفعال والعشق والغرابة، بحث يعجز العقل أن يهدأ أمامها وان ينتصر عليها أو أن يحدد لها التفسير الصحيح، من هنا الخوف الغامض الذي كان يدفع المسؤولين إلى اعتقال المجانين وعزلهم وتكبيلهم بالحديد وضربهم وكأنهم صورة الشر المستطير أو الخطر الذي يهدد كل فرد في المجتمع[2].

1- محمد على الكردي: قضايا ووجود فلسفية، بطاي- فوكو- ديد رو، دار ومطابع المستقبل، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ص 90

2- معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الانماء العربي، المجلد الأول، بيروت، لبنان، ص 339.

ويعرفه جميل صلبا بأنه : الخلل العقلي الشديد وقيل هو زوال العقل أو فساده وتقول جن جنوناً زال عقله وجن به ومنه: أعجب به حتى صار كالمجنون، ومادة الجيم والنون للاستتار، إلا أن معناها لا يخلو من الالتباس نسبتها إلى لفظ آخر، كقولنا جنون العظمة — جنون الاضطهاد، والجنون الأخلاقي — أو الاستعاضة عنها يلفظ آخر كقولنا: الخلل العقلي أو الضياع العقل، والعته أو الذهان — المس.

ويطلق الجنون أيضا على الشذوذ والوسوسة الحمقى، الهذيان، التصورات أو على كل ما يخالف الصواب أو يجاوز حد الاعتدال[1].

أما "أندري لالاند" فإنه يعترف بأن الجنون لفظ عام ومبهم جداً [2] إن الجنون عند العديد من اليونانين هو الهوس (Mania) الذي غالبا ما يكون مرتبطاً مع عدة كلمات قديمة وبمواطن الروح التي غالبا ما ينظر إليها سلباً: مينوس Menas باثوس Pathos باثيما Pathema إيبيثوميا Epithumia للحديث بالإغريقية، وانسانيا Insania فورار Furere ديليروس، اضطراب Perturbatant انمي Animi أو كذلك للسيد Libcbog للمصلحات اللاتينية.

كل واحدة من هذه الكلمات تفتح الكثير من الفروق التي كان يعالج الجنون من خلالها في العصور القديمة اليونانية والرومانية، مرض الروح المعاناة الإلهام الإلهي العاطفة الشر- الرغبة- تؤثر — شهوة وغيرها.

من الملاحظة أن هناك تنوعا في الأبعاد والدلالات التي يمكن أن يأخذها الجنون عند فلاسفة اليونان القدامى تارة ينظر إلى الجنون ايجابيا حينما يفتح للعلم بشكل خفي تنبؤات Présages وتارة أخرى ينظر إليه سلبيا عندما ينسب إلى أمراض الروح التي تورط في المغالاة، يوجد

1- جميل صليبا : المعجم الفلسفي بالالفاظ العربية و الفرنسية والانجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج1، ط، 1982، ص 418

2- اندري لالاند: الموسوعة الفلسفية، تر: خليل احمد وأحمد عويدات، المجلد الاول، منشورات عويدات، بيروت،لبنان ط2، 2007، ص 437

في الجنون بعض من الإيجاب والسلب حتى وإن وكان ذلك من خلال الرؤى الجديدة التي تفتحها والمعاناة[1].

يبدو أن مفهوم الجنون غامض و واسع فهو لا يشير عما قلنا المرض عقلي معين إنه يشمل الاضطرابات العقلية والسلوكية بحيث أن تصرفات الشخص تتخطى المألوف وقواعد المنطق وحدود الواقع والمعايير الأخلاقية والاجتماعية.

أمثلة المستمدة من الحياة كثيرة ومنها:

- فلان يغامر ويقامر ويعود إلى المترل صباحا وقد فقد كل ما يملك.

* فلان يشعر أنه ملاحق وأن الناس يتآمرون عليه.

* فلان يشعران أن زوجته تخونه وتريد أن تدس السُم له في الطعام.

إن الجنون فنون كما تقول العامة وهذا يعني أن صوره متعددة ومتنوعة بتنوع للغرابة في السلوك والصفات البارزة في الجنون هي العنف والغرابة في التفكير والسلوك وهذه العوارض تدخل في أكثر من مرض نفسي:

- **للجنون مفاهيم عدة أبرزها.**

1. المفهوم الشعبي: وهو قديم لا يزال شائعا في بعض البلدان يتناول كل ما هو مخفي وشيطاني، فالجنون يحدث عندما تدخل الأرواح الشريرة إلى الانسان وهذا يعني أن الطبيعة البشرية قد دها الشر والجنون هو عقاب إلهي نتيجة لتخطي المعلومات والقيم والعلاج يكون من أعمال الشيخ والساحر والراقي، والهدف هو تطهير المريض من الخطيئة والروح الشريرة.

1- إدغار موران: منهج الإنسانية البشرية، الهوية البشرية، تر: هناء صبحي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث،كلمة أبو ظبي، الامارات العربية المتحدة، ط1، 2009، ص 140.

هذه الاعتقادات والوسائل العلاجية ما تزال قائمة في اليوم في بلدان أمريكا اللاتينية وإفريقيا والشرق الأوسط والأقصى، إذ يلجأ المعالج الشعبي البعض الممارسات استعمال البخور والدخان، الصلاة، الضرب، الحجاب.

2. المفهوم الأدبي في الجنون: ويعني حالة من الغيبوبة والغرابة تحتوي الأديب أو الفنان وتبعده عن حدود الواقع والمنطق فيسبح في عالمه البعيد، يستنبط الصور والأفكار الغريبة إلى درجة الهذيان، أمثال بودليرو بريتون وأرتو وشوبنهور وشكسبير.

إن أرتو (أديب فرنسي توفي عام 1948)، يشن حربة ضد الطب النفسي وضد المجتمع المريض ويطالب بالحق في الجنون، وهو يعتقد أن الطب النفسي بدعة أوجدها المجتمع البورجوازي للحفاظ على مؤسسات ضد الناس الأذكياء وذوي التفكير الشفاف. والمجتمع هو المريض وهو الذي يدفع الناس إلى الجنون[1].

3. المفهوم التاريخي للجنون: وبتناول تطور النظريات عن الجنون والمرض العقلي إن الفكر اليوناني القديم طرح بعض النظريات التي بقيت تثير اهتمام العلماء إلى أمد طويل في كثير من البلدان.

إن قمة الجنون طويلة في مسارها المأساوي إذ بقيت أساليب العزل والتعدي وسلاسل الحديد يشكل قدر اللعنة والموت عند المجانين، وفي القرن السابع عشر، كان ينظر إلى الجنون على أنه نوع من الضلال والخطأ. فالعقل يعني اليقين والحقيقة، أنا أفكر إذن أنا لست مجنوناً.

ركز العصر الكلاسيكي على تمجيد العقل والفضيلة وعلى إنزال العقاب بالخارجين عن القانون والأخلاق، وكان هناك ارتباط بين الفقر والكسل والجنون الزهري وغيرها من النقائص البشرية التي ترتبط بها اللعنة وكان ينظر لهؤلاء جميعهم على أنهم قد فقدوا الوعي والعقل والفضيلة.

إن مفهوم الجنون في العصر الكلاسيكي يبقى أخلاقيا، دينيا و لم يعتمد على النظرة العلمية أما في القرن الثامن عشر فقد جرت بعض المحاولات لتصنيف الأمراض ومن بينها أعمال "دوسوفاج" و "دويلية" فالأول قسم الأمراض النفسية إلى أربع أنواع:

1- معن زيادة: المرجع السابق، ص 340

1. الجنون الناجم عن سبب خارجي لا يتعلق بالدماغ.

2. الهذيان الناجم عن تقرحات في الدماغ أو عن ضعف في وظيفة الإرادة مثل – الهوس –

3. الهذيان المؤقت الناجم عن بعض التسممات والالتهابات.

4. الخبل الناجم عن خلل في مستوى التفكير[1].

ثم جاء تصنيف "دوبليه" الشبيه إلى حد ما بالأول ولكن أكثر دقة بصورة عامة.

1. الجنون القائم على الهذيان والعنف والمصحوب بارتفاع الحرارة، وهذا قد يكون حصيلة التهاب في الدماغ.
2. الهوس والهذيان الثابت ودون حرارة.
3. السويدا: وتتصف بالهذيان المستمر والهادئ.
4. الخجل: وهو أدنى درجات الجنون خطورة ويتصف بضعف التفكير في الدماغ والصعوبة في العلاج.

مفهوم الجنون عند بعض الفلاسفة

يُعَرف في موسوعة العلوم الفلسفية كما يقول هيجل "العمى هو الصفة المميزة للجنون"فإذا ما انحرف إنسان ما، عن جادة العقل وهو عالم لما أتاه ولكن ذلك تحت تأثير انفعال عنيف، وصنفاه بأنه إنسان ضعيف، أما إذا انحرف عن جادة العقل عن عمد واقتناع كامل لا يتزعزع وصفاه بأنه مجنون.

ويؤكد أنه لا وجود لفكر معقول أن يخلو بالفعل من شك الجنون، وهكذا فإن العقل والجنون كل منهما ملازم للأخر، حيث أن الجنون لا يحدث إلا داخل عالم من الصراع أي صراع الأفكار.

1-بسام حجار ميشال فوكو، صورة جديدة للمثقف الغربي، مجلة الفكر العربي، العدد 3، 1984 د.ت ص 131

فالقدرة على تحمل الذات كانت من نصيب الإنسان وحده كما يقول "هيجل" ولهذا كان امتياز الجنون – إن جاز التعبير وقفا على الإنسان دون غيره، ويذهب "نتشيه" الى ابعد من ذلك إليه هيجل بقوله "هناك أمر واحد سيظل إدراكه مستحيل إلى الأبد: ألا هو أن يكون عاقلا".

وإذا كان هيجل يضع الجنون داخل الفكر، فإن "نيتشيه" يضع الفكر داخل الجنون أما تصور "بسكال" لهذين الموضوعين المتناقضين.

يقول "بسكال"الناس مجانين بالضرورة أما كونهم غير مجانين فصورة أخرى من صور الجنون" ويبدو أن "روسو" يتفق مع "بسكال" في هذا الرأي بقوله "ليس هناك من هو اقل شبها مني سوى نفسي... فأنا أخضع لمزاجين أساسين يتغير كلاهما داخل نفسي بصورة منتظمة".

غير أننا إذا نظرنا للجنون من الناحية الأدبية، كما هو الحال في أعمال شكسبير على سبيل المثال، لوجدنا أن المجنون الأدبي في أغلب الأحوال ليس إلا فيلسوف يرتدي قناعاً.

ومن ثم، فإن دور المجنون في الأدب يظهر جليا على أنه دور فلسفي كما أن مقارنة الجنون هذه أي يكون الجنون أدبيا في الفلسفة وفلسفيا في الأدب مفارقة بارزة، حيث كما هو واضح أن أفكار الفلسفة والأدب والجنون أفكار يتصل بعضها بالأخر إتصالا أصيلا ثابتا لذلك فان الجنون يفسر إشكالية العلاقة بين الفلسفة والأدب.

كان الجنون فيما سبق قاصرا على المجال الأدبي أو على مجال الحكم والأقوال المأثورة. أما اليوم أضحى أحد الاهتمامات الفلسفة الرئيسية.

فما من شك أنه ليس مصادفة أن يطغى الجنون على شخصية بارزة كشخصية "نتشيه".

إن جنون "نتشيه" يقف أمام العالم الحديث كدعوة وتحذير في آن واحد على أنه ذلك الخطر الذي يرمي جنون "نتشيه".

وجدناه يحمل معنى الدعوة إلى مراجعة تاريخ الثقافة الأوروبية برمته وجعله موضع شك ومساءلة، وفي هذا المحتوى عن الجنون نجد الفيلسوف "ميشال فوكو"، في دراسته التي تحمل عنوان "الجنون والهذيان"، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي[1].

* **تعرف ايجرائي**

ظاهرة الجنون اعتبرت دائما من طرف الخطاب العقلاني ظاهرة هامشية ومفاده للطبيعة ولذلك فإن جل الأطباء والفلاسفة تعاملوا مع المجانين طبقا لهذه النظرة الاقصائية.

الجنون عند "ميشال فوكو" لا يوجد غلا في المجتمع أي ظاهرة الجنون لها وجود في ذاتها بل هي من صنع الوسط الاجتماعي الثقافي.

3. الجنون عند الإغريق القدامى

لقد تعودنا على مقارنة الثقافة اليونانية من خلال التفكير والمنطق الفلسفي غير أننا نشعر عموما بدهشة، نرى بزوغ اللاعقلاني داخل فكر معروف بوصفه مهد العقلانية الغربية لم يولد آدم حكيماً وكذلك حواء فكانت تسمية جنون البشر امرأ بديهيا في فلسفة العصور القديمة، وفي حكمة الشرق ولدى شعراء جميع القارات والكتاب الأخلاقيين ومنهم ابراسيم ومونتن وباسكال وروسو" هناك بالطبع كل هذه الآلهة التي من قصم الاوليمبوس إلى أعماق البحر تملأ الكون غير أن نسبها للعبد مفصل وطابعها العبد بشرى يجعلانها تفلت من خطورة عالم اللغز والسحر، وقد تبدي الجنون في الأساطير الدينية المبكرة والحكايات الخرافية بوصفه قدراً أو عقاباً[2].

لقد بين "باسكال" أن الفلاسفة أمثال أفلاطون وأرسطو رغم أننا لا نتصورهم إلا بحلة علمية ومعرفية كبيرة إلا أنهما في الحقيقة رجلان نزيهان، ومثلهم مثل الآخرين يمازحان أصدقائهما وفي سعيهما لوضع القوانين والسياسة يقومان بذلك بنوع من السخرية والفكاهة، إن هذا العمل

1- بسام حجار، ميشال فوكو، صورة جديدة للمثقف الغربي، المرجع السابق، ص 134

2- روي بورتر: موجز تاريخ الجنون، تر: ناصر مصطفى، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، كلمة ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، ط 1، 2012، ص 19.

ليس سوى الجزء الأقل فلسفة من حياتهما. أما الجزء الأكثر فلسفة فقد كان العيش ببساطة وفي سلم وهدوء، وحتى أن كتبا في السياسة، فقد كان ذلك يشبه تنظيم مستشفى للمجانين، وإذا ما تظاهر كأنهما يتحدثان عن شيء عظيم فذلك لكونهما يعرفان أن هؤلاء الحمقى الذين كانوا يتحدثان معهم كانوا يعتقدون أنهم ليصبحون ملوكا وأباطرة[1].

أ) **جنون أغامنون:** لست انا المذنب بل زيوس يصرح اجاممون الذي يتهم الله بأنه أعماه وقاده إلى خطف عشيقة أخيه كتعويض عن فقدان عشيقته الخاصة، ماذا كان بوسعي أن أفعل ؟ الألوهية سوف تفعل دائما ما تشاء لقد كان الجنون قبل الآن عند الإغريق مرتبطا بصفوفهم المسؤولية. أما بالنسبة لنا فغالبا ما توافق تشخيص الاضطرابا ت العقلي والجنون باللامسؤولية الجنائية ولكن عند اليونانيون في العصور القديمة لم يكن معترفا بالبيئة، كان يحكم عليه الأفعال كذلك اجامنون المذنب يجب لأن يقدم تعويضا عن الأخيل عن فعله، أنا مستعد لعقد سلام وتقديم تعويضات كافية.

ب) **تصور الجنون وفق هوميروس ومعبد دلف:** في القصائد والأشعار الهومرية نحن نرى الآلهة تفتن وتسخر الإنسان وتدفعه للقيام بأشياء ضد إراداته الآلهة يمكننا أن تجعل الإنسان أكثر رشدا مجنونا و أن ترد العقل للجنون إن الآلهة مصدر الجنون فهو يأتي منها غير أن الحمقى لا ينظر إليهم دوما بشكل سلبي مثلما هو الحال في مثال أجامنون المستمد من "الإلياذة" الجنون ليس دائما شيئا ينبغي الهروب منه أو تجنبه بما أن الأحمق في بعض الأحيان هو ذلك الذي يبدو ملهم بشكل يجسد عليه وبهذا عندما ما ننسب الشعراء سامعوا الأصوات الإلهي قرابة مع معبد أو هيكل دلف[2].

ج) **تصور الجنون في الفلسفة اليونانية:** في النصوص الفلسفية انه اقل عند الآلهة ولكن عموما في الإنسان في عواطفه أو الجزء اللاعقلاني من روحه هو الذي نعثر فيه على مصدر الجنون الذي يبنى غالبا منها إليه بشكل سلبي منظورا بشكل سلبي إذا كان يدفع الإنسان لذهاب إليه بذاته

1- عطيات أبو السعود: الحصاد الفلسفي للقرن العشرين وبحوث فلسفية أخرى، الناشر منشأة المعارف، طباعة شركة الجلال للطباعة، مصر، ص 35.

2- بليز باسكال، خواطر، تر: ادوارد البستاني، سلسلة الروائع الإنسانية، اللجنة اللبنانية للترجمة الروائع، بيروت، لبنان، 1972، الخاطرة، رقم 331، ص 113.

أو ضد ما هو معقول، عند الرواقيين نجد شيشرون يصف المسؤولية الإنسانية، لا الإلهية في الجنون أو الحماقات عندما يقول إن أمراض الروح المختلطة مع العواطف الفاسدة، لا يمكن أن تحدث دون أخطاء من طرفنا بما أنها مستمدة من احتقارنا للعقل رغم أنها لا توجد إلا عند الشر.

د) **الجنون العادي والجنون الإلهي:** يقوم "ديفرو" بتحليل "فيدروس" أفلاطون الجزء الأكبر من الكتاب هو الحب والكتابة من خلال حوار سقراط و "فيدروس" وهناك أيضا مسالة الجنون ونظرية التذكر وتناسخ الأرواح وهجرتها هذا الملخص قد يجعل البعض يعتقد بلا تجانسية الموضوعات وهو ما أوخذ عليه أفلاطون- ولكن الحقيقة كما لاحظ العديد من المؤلفين- ويعتبره "دريدا" واحد من المتأخرين الأكثر شهرة هناك وحدة فكر وتناغم بين هذه المواضيع.

وعموما يميز أفلاطون ضمنيا بين جنون من أصل عادل وجنون من أصل إلهي، أي هناك نوع سيء وهو الهوس الذي يصاحب ولع جسدي ونوع جيد ملهم سماوي[1].

هذا الأخير هو الذي كان يتحدث عنه بشكل ضمني وهو الوحيد القادر على جعل جملة سقراط التي علق عليها كثيراً مفهومه أن أعظم النعم تأتينا من الجنون.

4. **دوافع البحث في تاريخ الجنون:** أراد فوكو البحث عن دلالات التي اقترنت بالجنون عبر العصر الوسيط وعصر النهضة والعصر الكلاسيكي والعصر الحديث مستعيناً في ذلك بتأويل مادة الأرشيف التي اشتغل عليها.

ولعل ما يلفت الانتباه في هذا السياق استنطاق الأماكن المرتبطة بالظاهرة، وقد ساهم المنهج الحفري الذي اعتمد في ذلك في نقل علم الآثار من مكانه المعتاد كالبحث في المعالم التاريخية وغيرها من المادة الجامدة وتوظيفه في الأحوال النفسية كالجنون وأعمال السياسة من الاعتقاد والتعذيب وقد عبر عن أهمية الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو من خلال تعليق خص به كتاب

1- كلود كيتل: تاريخ الجنون — من العصور القديمة وحتى يومنا هذا — تر: سارة رجائي وكريستينا سمير فكري، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2015، ص 9.

تاريخ الجنون إذ قال في شأنه إن كتاب تاريخ الجنون للفيلسوف ميشال فوكو بمثابة علم أثريات الأمراض العقلية[1].

لقد نقل فوكو المنهج الحفري إلى المؤسسات العلاجية وقام باستثماره ليكشف عن آليات القهر الكامنة تحت مئزر الطبيب مبينا في ذلك طريقة معاملته للمرضى، تلك المعاملة التي تطرح إشكالية تتعلق بالوضع الإنساني لهذه الفئة وبذلك يكون "فوكو" قد أراد أن يسمع صوت المجنون ويتأمل لغته التي لم تتمكن سماعة طبيب من سماعه.

العصر الكلاسيكي الذي يتحدث عنه "فوكو" في دراسته للجنون هو فترة وجيزة جيداً من تاريخ الإنسانية وأحداثها تدور في أوروبا بالتحديد فرنسا[2].

لقد هيمن علم الظاهريات والفكر الماركسي، على المناخ الفكري والفلسفي في أوروبا القرن العشرين، وتجلت هيمنتها في الصعيد السياسي والاقتصادي والإيديولوجي، هذا ما اثر بشكل واضح على البنية الفوقية والتحتية للمجتمعات، وجعل فوكو يستند في ثورته على النظام الفكري السائد على المنهج الأركيولوجي الذي يقوم من خلاله بمساءلة التراث الفكري الميتافيزيقي الغربي.

أعتمد "فوكو" في اختلافه عن هذه الأفكار السائدة على أشكال التحليل البنيوية الناشئة التي تتوسع في أفكارها اللغويات وتجعلها تشمل الظاهرة الثقافة والاجتماعية.

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب البحثي وإعادة التفسير الراديكالية الماركسية التي قام بها الفيلسوف "لويس ألتوسير" من أجل تطوير نظرية ضد النزعة الانسانيبة التي أثرت بعمق في فكر فوكو[3].

تتبعت أعمال "فوكو" المبكرة الألفاظ الفكرية المتغيرة فيما يتصل بأنواع المعرفة المختلفة وكانت دراسته الرئيسية المبكرة الأولى الجنون والحضارة نسخة معدلة من أطروحته للدكتوراه، حيث

1- جيجيكة إبراهيمي: ميشال فوكو – حفريات الإكراه في الفلسفة- دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2011، ص ص 16 - 17

2- المرجع السابق، ص 17.

3- جون سكوت، خمسون عالما اجتماعيا أساسيا، المنظرون المعاصرون، المرجع السابق، ص ص 291 - 292

تناول العلاقة بين الجنون والسببية، قام بالدراسة المسيحية لردود الفعل المتغيرة اتجاه الجنون وفقا للطريقة التي يتغير فيها التفكير في العقلانية، بصورة حادة منذ فترة العصور الوسطى ومرورا بالتنوير إلى عصر البنية وصولا إلى القرن التاسع عشر، وكانت الدراسة أهم أعمال فوكو وأكثرها قيمة من الناحية التاريخية وانتحل عمل تركيز تاريخي الأضيق وتناول الطبيعة المعرفة الطبية في وقتم مقارب للثورة الفرنسية، وحتى هذه النقطة كان التاريخ الطبي المتعارف عليه قد أكد أن الطب تحرر نهائيا من الخيال والخرافة ليصل إلى حقيقة الموضوعية حول الجسم.

واصبح فوكو نفسه عضوا إذا نشاط متزايد في مثل هذه الحركات الاجتماعية في السبعينات شن حملات لصالح السجناء والمهاجرين والمطالبة بحقوق الشواذ في العديد من المناسبات[1].

قام "فوكو" في كتابه النظام والعقاب بتفريغ مفهوم الطبائع الدقيقة للقوة التي تعمل في أجساد الأفراد. والمعنى الحاسم هنا هو أنه إذا أصبحت القوة المحلية والهامشية فإن أي جهد لتحويل علاقات القوة يجب أن تبذل جهداً لمخاطبة ممارسات الحياة اليومية، إذا هناك مظهر أخر في نقده موجه ضد الايدولوجيا وهذا المفهوم الأساسي في الكتابات الماركسية عن القوة التي يتبناها باقتصاديات الزيف.

إن دراسة "فوكو" لتاريخ الجنون هو ضرب من الاركيولوجيا الفكرية الضمنية التي لم تتحدد بعد كل ملامحها من حيث دقة المنهج وانتظام وسائله وأحكام تقنياته وطرائقه، ولعل هذا الطابع التلقائي المتحرر هو سر من أسرار جمالها الذي يجعل منها عملا فنيا من الدرجة الأولى ومشروعا فلسفيا لا يتجلى فيه عمق الفكر بقدر ما تتنازعه دقة الإحساس وبراعة التصوير.

نرى "فوكو" يكشف لنا عن ضرب من الشعور المأسوي الذي تتلاحم أوامره بظلمة الكون و الوجود وتتدافع خفقاته في تفاعل مع قوى الشر الكامنة في طيات الطبيعة، هذه القوى التي لا تطف هي بعد انتصار العقل الكلاسيكي عليها.

1- المرجع السابق، ص ص 292 - 298

عما يذهب فوكو، قواعد المنطق العقلاني عند "ديكارت" في الوقت الذي أقام الملك لويس الرابع عشر، فيه نظامه الصارم لعزل المجانين والمعوذين والفقراء إذ يسير بين الجنون نوعين مختلفين ينوع يبتكر ابتكارا غير معاناة العزل وتجربتها المريرة، وينتهي مفهوم الأمراض العقلية والنفسية الحديثة ونوع أخر فيه كثيرة من الماضي يحمل فيه أعمال "سار" المبدعية.

إلا أن تجربة الجنون في بداية العصور الحديثة كما يقدمها لنا "فوكو"، لا تصور فقط ضياع الإنسان وإغرائه في كل مظاهر القوى الخارجية التي تحوله باسم قوانين الضبط والانضباط والتنظيم والترشيد، ونتيجة ذلك أنه منتجة في خدمة الطبقات السائدة.

إن تجربة الجنون ليست علاقة المرض العقلي بفلسفة العلاج وتقنياته ولا بنظريات العلم و تطوره وإنما هدفها اسمي من ذلك إذ تعتبر مدخلا رائعاً لإدراك الخفية التي تقوم عليها ثقافة المجتمع الأوروبي الحديث وحضارات الفريدة[1].

أقترن الجنون في العصر الكلاسيكي بانهيار النفسي الواعية، ويعجز في القدرات العقلية لدى الإنسان لتبدأ إرهاصات والاعتقاد بفناء الكائن العاقل ذلك الفناء الذي يتجسد عن طريق تفكك علاقة الإنسان بالواقع، ولذا سحبت الثقة من الجنون وكل ما ينتجه سواء فنا او سياسية وأخلاقيا.

إن العصر الكلاسيكي يدفع إلى تمجيد العقل ووضع الجنون في حيز الصمت "لقد تمكن الجنون في عصر النهضة من تحرير صوته لكن العصر الكلاسيكي يرده إلى الصمت بقوة غريبة"

اقترنت تجربة العصر الكلاسيكي في الجنون بالتأملات الديكارتية وقد أكد ذلك فريدريك جرو، عندما قام ديكارت بتأليف كتابة "التأملات الميتافيزيقية" الذي كان دخل إلى المؤسسة الشك الجذرية أملا في الوصول الحقيقة الاولى.

اصبح اقتران الجنون بلا عقل مبرهنا عليه بطريقة فلسفية عند الفيلسوف ديكارت، وهذا من خلال تأمله الأولى حسب ما أشار اليه عبد الوهاب جعفر:كيف يمكنني أن أنكر أن هاتين

1- محمد علي الكردي: نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، د.ط، 1992، ص ص 128-150

البدين هما يداي، وهذا الجسم جسمي اللهم إذا أصبحت مثلا هؤلاء المجانين الذين اختلف اذهانهم"[1]

أصبح المجنون حيوانا في نظر العصر الكلاسيكي، وهذا ما تكبته الصورة المستقاة من هذا العصر حسب ما أثار فوكو بيدي الجنون وجهة من خلال قناع الحيوان فهؤلاء الأشخاص الذين نراهم مقيدون إلى الجدران وموثقون ومحتجزين داخل الزنازين ليسوا بشرا ذوي عقول شاردة "لهذا فإن مشكلة المؤرخ الذي يؤرخ للأسلوب الذي استخدمه تاريخ الثقافة تتمثل في كيفية تجنبه فيما يروي....". لهذا فإن مشكلة المؤرخ للأسلوب الذي استخدمه تاريخ الثقافة في كيفية تجنبه، فيما يرويه تكرار ذات الاشارة المستبعدة للجنون وهي الاشارة تشكل بنية تاريخ من هذا النوع، أي تمثل مشكلة في البحث عن لغة للجنون، انها لغة اخرى غير لغة العقل التي تقهر الجنون وتكفله وغير لغة العلم التي تحيل الجنون الى شيء. شيء لا يتأتى له أي يتواصل مع أي حوار.

ولعل الهدف الذي سعى اليه فوكو، او قل التحدي الذي جاهز به والرهان الطموح الذي راهن عليه انما يتمثل في محاولة انطاق الجنون ليتحدث الجنون عن نفسه ويفتح أذاننا لكل تلك الكلمات المحرومة من لغة تنظمها، تلك اللغة الصمت الذي لم يحدث أن تحررت منه أبدا. إنها جذر المعنى الذي تفحم ولغة علم الطب العقلي التي تعدو كونها حديثاً فرديا للعقل التي لا تعدو كونها حديثا فرديا للعقل يدور حول الجنون — هي اللغة الوحيدة التي يمكن ان تقوم على هذا الصمت — وإن الهدف ميشال فوكو ليس كتابة لتاريخ هذه اللغة. وإنما هو أريد أن اكتب علم أثار هذا الصمت.

ان القضية التي يتناولها ميشال فوكو، ليست كتابة تاريخ المعرفة انما التوفر على تدوين الحركات الاولية لتجربة ما من التجارب. إن ما أود كتابته ليس تاريخ لعلم الطلب العقلي، انما لتاريخ الجنون نفسه، قبل أن يقع الجنون اسير للمعرفة. إن دراسة فوكو، تتضمن الى حد ما نفس طبيعة الفكر المنطقي والبحث الفلسفي، إن مشكلة التي تواجه مؤرخ الجنون وفيلسوفه، عند تحليله

1-مجموعة من الكتاب، مسارات فلسفية، تر محمد ميلاد. دار الحوار، ط 1، 2004، اللاذيقية، سوريا، ص ص 23- 27

لتاريخ البنية الاساسية المحيرة للجنون، تتمثل في ايجاد صوت للجنون ورد لغته إليه وحقه في التحدث الجنون نفسه باعتباره ذاتا وأخر في أن معا ؟ كيف له أن يتكلم من مكان الأخر دون أن يقع في الشرك الفلسفي للفرع الجدلي الذي يتعسف في الحالة الأخر الى شبيه متماثل على حين يرفض المناقشات المنسوب الى الجنون. إن أي ترجمة ما للجنون ليست في الواقع سوى صورة من الصور التي تعمل على كفه، صورة من صور العنف الموجه ضده، إذ يلاحظ ديريدا الى الجنون لا يظل وحده بالضرورة رهين القلعة التي تضمنه سجيناً داخل اسوارها، بل أن مشروع فوكو نفسه، بالمثل يظل رهين سجن الاقتصاد الصوري الذي يدعى هذا المشروع. حيث يرى "ديريدا" أن علاقة العزلة المتبادلة بين اللغة والجنون وهي اللغة التي لا يمكن لكلام فوكو نفسه أن يتجنب ترديدها وإن هي ليست بالعزلة التاريخية وإنما هي عزلة اقتصادية فإن استبعاد ديكات للجنون لا ينطق من حجة الكوجيتو، بل ينطلق من نفس عزمه على أن يتحدث والواقع أن ديريدا يطرح تفسيراً مختلفاً الى حد ما للتأمل الأول، ففي قراءته لهذا النص يقتبس منه على سبيل التهكم، الجزء الخاص بتجريد الهذيان من أهليته على أنه اعتراض من شخص ليس بالفيلسوف[1].

1-مجموعة من الكتاب، مسارات فلسفية، المرجع السابق ، ص 28



1. ماهية المنهج الاركيولوجي
2. الفرق بين الاركيولوجيا وتاريخ الأفكار
3. أصول المنهج الاركيولوجي

1. ماهية المنهج الأركيولوجي

يعرف المنهج الذي استخدمه ميشال فوكو، بالمنهج الأركيولوجي وقد استعمل "فوكو" هذا المفهوم لأول مرة في كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" Histoire de la folie a l'âge classique بالإضافة إلى أن كتابة مولد العيادة Naissance de la classique كان يحمل عنوانا فرعيا وهو "اركيولوجيا النظرة الطبية، وبعد نشر "فوكو" الكلمات والأشياء Les mots et les choses" حمل هو آخر عنوانا فرعيا، وهو "أركيولوجيا العلوم الإنسانية"، وفي 1969 أصدر "فوكو" كتابه الذي يوضح فيه شكل معمق الآليات التي اعتمدها في بلورة المنهج الذي اعتمده، وهو الكتاب المعنون بـــــ"أركيولوجيا المعرفة L'archiologie du savoir" هذا ما يدل على أهمية مصطلح الأركيولوجيا في الفلسفة الفوكية.

فما هي دلالة الأركيولوجيا عند فوكو ؟ وما هي الآليات التي اعتمدتها الأركيولوجيا في مسيرة نقد المنظومة المعرفية الغربية ؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار المنهج أصيلا في نشأته ؟ أم أن هناك قواعد فكرية ومنهجية كانت وراء إبداع الأركيولوجيا الفوكوية ؟

الاركيولوجيا من حيث المصطلح تعني العلم الذي يعنى بدراسة الحضارات التي شيدها الإنسان قديماً، باستعمال الأدوات والوسائل المختلفة بهدف الحفر والتنقيب عن الآثار والمعالم التي خلفتها تلك الحضارات. أما بالنسبة لــ "فوكو" فإنه يستخدم هذا المفهوم للمنهج الذي وضعه في دراسته وتحليله للبنى المعرفية الغربية، حيث يقر في أركيولوجيا المعرفة، أنه أطلق على منهجيه وبكيفية ربما رسمية اسم الحفريات [1] التي يستعمل على وصف الممارسات الخطابية بطريقة مخالفة لباقي المناهج التاريخية ففي نظر "فوكو" أن المناهج المعمول بها غير قادرة أو لنقل قاصرة على وصف الخطاب وتحليله بالكيفية اللازمة، وانطلاقا من هذا يبرز "فوكو"، اعتماده على المنهج الاركيولوجي فقد سبق وأن وجدت مناهج كثيرة قادرة على وصف اللغة وتحليلها [2] إن الفكرة الأساسية التي يمكن استنتاجها من هذا النص، هو ذلك السأم الذي كان ينتاب "فوكو" من المألوف الذي لا يبدع ولا يأتي بأي جديد، بحكم أن المناهج المعتمدة في الدراسات التاريخية، لا تخرج عن كونها تائهة وانطلاقا من هذه النقطة بالذات يطرح "فوكو" سؤالا مهما فيما يخص الجديد الذي يتقدمه

1- ميشل فوكو، حفريات المعرفة، نشر، سالم يخون، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2005، ص 125

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها

للأركيولوجيا مقارنة بالمناهج الأخرى، حيث يقول "فماذا بوسع الحفريات أن تقدمه بالنظر الى ما لم يكن في وسع المناهج الوصفية الأخرى أن تقدمه ؟" وما جزاء مهمة شاقة كهذه[1].

يجيب فوكو، عن هذه الإشكالية في حوار له مع جردية Le Monde الفرنسية في سنة 1969 بأنه "استعمل لفظ الأركيولوجيا للدلالة عن وصف الوثيقة و لم يقصد اكتشاف بداية أو الكشف عن عظام وهي رميم" [2] إذن فالوصف و الوثيقة هما أساس الأركيولوجيا التي يعرفها "فوكو" بقوله "أمكننا استناد الى قانون الألفاظ والذي لا يطابق قانون علماء اللغة، أن نطلق على تلك الأبحاث اسم حفريات وهو لفظ لا يتضمن أي محاولة للجري واللهث وراء البدايات، كما لا يقرن التحليل بأي تنقيب بل يدل على الفكرة الأساسية والمحورية العامة لوصف هدفه استنطاق ما قيل في مستوى وجوده، وفي مستوى الوظيفة العبارية فالحفريات تصف الخطابات لممارسات محددة في عنصر الاحتفاظ والظهور"[3] يتضح من هذا النص أن الأركيولوجيا لا تسعى للبحث عن البدايات الأولى فهي ليست مبحثا جيولوجيا أو تنقيبا، لان الوصف الأركيولوجيا يسعى في أساسه إلى استنباط المنطوقات أو العبارات الممثلة في الأرشيف، ويمكن أن منهجية النقد الاركيولوجي، تسعى للكشف عن الأسس التاريخية التي تشكلت في ظلها الخطابات من خلال تحليل القطائع التي شهدتها مختلف الإبستميات بحكم أن الخطاب هو ما تسعى الأركيولوجيا إلى وصفه وتحليله ودراسته إضافة الى أنها تهدف أساسا الى وضع اليد على طريقة مغايرة في رصد نظم المعرفة عن طريق تحليل الخطاب في مستوى ظهوره وأقوله واندثاره، ويتمثل ذلك تصور تاريخ الثقافات كما لو كان سلسلة من النظم المعرفية تتقاسم لفترات تاريخية دائرة الحقيقة[4].

وبهذا يكون التاريخ الأريكيولوجي دراسة نقدية لمختلف الخطابات التي شكلت في فترة ما مركزية الحقيقة، لأن الأريكيولوجيا بمثابة وصف وتحليل للتاريخ العام لمجموع الممارسات الخطابية وغير الخطابية، فتحليلية تاريخ الخطاب فيها تخلي مطلق عن الشمولية التاريخية لكنها في الوقت نفسه

[1]- ميشال فوكو ، المصدر السابق، ص 126

[2]- الزواوي يغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الاعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الامرية، 2000 م، ص 113.

[3]- ميشال فوكو ، المصدر السابق، ص 122

4- عبد السلام بن عبد العالي، اسس الفكر الفلسفي المعاصر مجاورة الميتافيزيقا، دار توب قال للنشر، المغرب، ط 2، 2000، ص 62

تعنى الآثار الفعلية للخطاب عبر التاريخ[1] إذ يعدوا والتاريخ عبارة عن سلسلة من الأحداث المتقطعة التي لا تعرف الاتصال أبدا لكونها خاضعة لمبدأ الشتات والتبعثر فكل مرحلة تاريخية لها من الصفات والخصائص ما يجعلها تتميز عن باقي المراحل التي تليها، وبناءا على هذا تتجه الأريكيولوجيا نحو تلك الانفصالات التي يشهدها الخطاب، بالنظر إلى أهميتها في بلورة خطاب الحقيقة، فالإستراتيجية الفوكوية تسلط الضوء على المجال المعرفي في جميع مستوياته وتجلياته، هذا ما يصطلح عليه "فوكو" بإسم الذي يعني به مجموع العلاقات التي بإمكانها أن في فترة معينة بين الممارسات الخطابية التي تفسح المجال أشكال ابستومولوجيا وعلوم وأحيانا بمنظومات مصاغة صوريا، أنها النمط الذي يتم حسبه الانتقال داخل تشكيلة خطابية الى التنظير الاسبتمولوجي والعملية والصياغة الصورية.

إن الابستمي إذن هو مجموع العلاقات المترابطة التي من شأنها أي تنطق الشرعية لمعرفة معينة، أو لمجموع معارف ليصطلح عليها علما، وهي أيضا من يمنح التأشيرة لظهور التنظيرات الابستمولوجية سواء في مستواها النظري والعملي إضافة الى ما سبق يمكن اعتباره الابستمي مجموعة العلاقات التي يمكننا الوقوف عليها في فترة ما بين العلوم فيما تحلل مستوى إنتظاماتها الخطابية[2].

في كونه يسعى للكشف عن الأسس المعرفية التي قامت عليها معرفة عصر معين من خلال تحليل سلسلة العلاقات القائمة بين مختلف العلوم، وهذا ما يؤدي الى تنقية التاريخ الميتافيزيقي من مختلف مقولاته، ومن جل المظاهر التي توفي بالذاتية، وبالتالي إلغاء القداسة التي تعطي لمقولة الذات في التحليلات التاريخية.

وعلى هذا الأساس جهد "فوكو" في عزل و وصف مختلف النظم المعرفية التي ترتد في حقيقة تاريخ تكوينها وظهورها الى ثلاث حقبات كبرى في تاريخ الفكر الغربي، اصطلح عليه تباعا عصر النهضة للعصر الكلاسيكي والعصر الحديث[3].

1- ميشال فوكو، المصدر السابق، ص 176

2– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3– أوبيرد ريفوس وبول رابينونف، ميشال فوكو، مسيرة فلسفية، تر: جورج أبي صالح، مراجعة وشروحات، مطاع صفدي، مركز الانصاء القومي، بيروت، ص 23.

دون أن يكون بين هذه المراحل، أي استمرار أو اتصال بل مجرد فواصل وتقطعات، استنادا لهذا يعمل "فوكو" على تتبع مختلف المعارف التي تكونت وظهرت في الحقب الزمنية الكبرى والمختلفة، تتبعا تاريخيا وفقا لمنظور تحليلي اركويولجي كاشفا من خلاله عن البنى الداخلية لمجمل الخطابات بعيداً عن السياق التاريخي بالمفهوم الكلامي الذي تعتمده المناهج الأخرى خصوصاً أن "فوكو" في معرض تحليلاته لا يفتأ أن يصف تلك المناهج المعتمدة في تحليل المنظمات المعرفية التي تشكلت عبر التاريخ بأنها قاصرة أو عاجزة عن الوصف الدقيق.

2.الفرق بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار

تعتبر الاركيولوجيا نقطة الإبداع القصوى في "الفلسفة الفوكوية"، نظرا لكونها أسست لقواعد منهج جديد في دراسة الخطابات في مختلف مستوياتها، دراسة ذات طبيعة تاريخية نظراً لكون الخطاب موضوع البحث، ظهر في فترة ما من فترات التاريخ فكان على "فوكو" ضبط الفرق بين ما أبدعه من منهج وبين المنهج المعتمد في اغلب الدراسات التاريخية؛ وهو فرع معرفي له حضوره القوي في المشهد الفلسفي والتاريخي ونعني به تاريخ الأفكار وفي هذه النقطة يرى فوكو انه يتوجب عليه منهجياً القيام بتمييز طريقته عن تاريخ الأفكار ومن جهة أخرى أبراز أوجه اختلاف التحليل الاركويولجي عن المناهج الوصف لذلك التاريخ[1].

بالرغم من أن المهمة صعبة كما أقر "فوكو" بذلك أي صعوبة التمييز بين المنهجين يكاد أن يكون متداخلين الى حد يصعب معه الفصل بينهما، إلا أن "فوكو" يرى تاريخ الأفكار يتميز بها بأن له دورين اثنين فهو من ناحية يحكي تاريخ الأطراف والهوامش ولا يحكي إطلاقا تاريخ العلوم، بل تاريخ تلك المعارف الناقصة على المعارف والخطابات بل يكتفي فقط بالسرد التاريخي واقفا على الهوامش دون التعمق في الجوهر الإنساني الذي تحتويه تلك المباني المعرفة التي أخضعت للتحليل فكل المنظومات المعرفية فيما يرى "فوكو" تتميز بأنها لم تستطيع يوما أن ترقي إلى مستوى يؤهلها لتكتسي صفة العلمية لكونها معارف ناقصة لم تؤسس على قواعد علمية متينة إضافة على أن تاريخ

---

[1]- ميشال فوكو، حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 126

الأفكار يكتفي فقط بدراسة تاريخ تلك الفلسفات الأشباح، التي تخالط الآداب والفن والعلم والقانون والأخلاق وفي حياة البشر اليومية تاريخ تلك الموضوعات الفكرية العريقة[1].

وبناء على هذا يتضح مدى شيق المجال الذي يعمل من خلاله مؤرخ الأفكار، فهو مجرد وصف سطحي اختلاف الممارسات الجانبية سواء في مجال الفن أو الآداب أو القانون وفي العموم التي لم تتمكن أبدا أن تضع لنفسها أثرا في التاريخ الإنساني وما يجعل من هذا الحقل المعرفي ضعيفاً إلى ابعد الحدود هو الاهتمام المبالغ فيه بالمؤلف. أو كاتب الوثيقة واعتباره الحلقة الأساسية في الدراسة والبحث التاريخي.

وفي جامع القول أن تاريخ الأفكار مجرد تحليل للآراء والتعليق عليها، بعيدا كل البعد عن تحليل المعرفة والكشف عن بياناتها الداخلية التي جعلتها تظهر.

إضافة إلى إغفاله للخلفيات التاريخية لتلك الوثائق المحللة هذا ما يجعله غارقا في متاهات الذاتية التي تبعد البحث عن العملية والدقة في النتائج أما المستوى الثاني الذي يعنى بدراسة تاريخ الأفكار فهو النفاذ إلى الفروع المعرفية القائمة ودراستها وتأويلها [2] هذا ما سهل على نوع صفة زاوية محددة، فكل اهتمامه منصب على تاريخ العلوم والآداب والفلسفات بوصف المعارف التي تشكلت من خلالها أسس الجانب العملي دون أن تمد الى الجانب النظري والصوري، هذا ما يحيل بالضرورة إلى استكشاف مختلف التجارب التي يدونها الخطاب في اتصالها وانفصالها لأن تاريخ الأفكار في جوهره فرع معرفي يتناول البدايات والنهايات ويهتم بوصف ألوان الاتصال المبهمة وألوان العودة وبإعادة إنشاء التطورات الخطابية المتعاقبة للتاريخ[3].

وانطلاقا من ذلك فيكون مؤرخ للأفكار حالة تتبع ولادة مختلف المفاهيم وكيفية انتقالها من حقل إلى أخر، وكيف ترتبط الآثار المنتجة بمختلف المؤسسات الاجتماعية كما سبق دائما الى إعادة إحياء التراث القديم الأكثر تأثيراً وفاعلية ورواجاً في صورته الأولى التي تنشأ وتتبلور فيها. وفي هذا الصدد يقول "فوكو": " **يغدو تاريخ الأفكار فرعاً معرفيا تتداخل في المناهج**

1- المصدر نفسه، ص 126 - 127

2- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 127

3- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

والطرق كما يغدو وصفا للدوائر المتراكزة التي تحيط بالآثار وتشدد عليها وتربط بينهما "[1].

والمهمة الأساسية للاركيولوجي، ليست متمحورة في البحث عن الأفكار والمعارف والتي من شأنها أن تظهر خطاب ما، بل أن غايتها تتجسد في تحديد هذه الخطابات من حيث هي ممارسات تحكموها قواعد معينة فهي تنظر للخطاب على أنه وثيقة.

.بمعنى أن الخطاب يعتبر مادة الوصف الاركيولوجي لكونه موضوع البحث والدراسة شرط أن يتم التمييز بينه وبين الوثيقة لأن الاريكيولوجي تلقي دور الوثيقة في عملية البحث التاريخي لكونها ليست مبحث تأويليا تسعى لإنتاج خطاب من خطاب آخر، يعتبر أولياً بل أن الاركيولوجيا تعنى بالخطاب باعتباره نصبا أثريا قائما بذاته له تجلياته وآلياته وإستراتيجية في الممارسة إضافة إلى ما تم تحليله يرى "فوكو" أن التباين واضح بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار من خلال نفي أن يكون الاركيولوجي تسعى للبحث عن مظاهر التواصل أو الاستمرار بين الخطابات في الحقب المختلفة والسعي الى تحديد لحظة البداية والتغيير في خطابها بل ينحصر دورها في تحديد صورها الذاتية لأن غايتها تحليل الفوارق والاختلافات بين صيغ الخطاب ووجوهه[2].

بعيدا في ذلك الاهتمام بتاريخ الاستمرارية الذي يعتبر من قبيل التاريخ الأسطوري ومن النقطة يؤسس "فوكو"لفكرة أساسية في وصف القطيعة أو الانفصالية التي تلقى معها مقولة الذات كمحور في تحليل الأرشيف.

زيادة على ما سبق تتميز الاركيولوجي بخصائص تجعل منها منهجاً مغايرا لباقي المناهج التاريخية والنقدية تتمثل في إسقاط الأثر وعدم الإعلاء من شأنه وإنما البحث عن اللحظة التي يظهر فيها بعيدا في ذلك عن ربطه بالذات التي أنتجته سواء منفردة أو مجتمعة عن طريق عزل الأحداث الخطابية عن سياقها الاجتماعي والنفس على السواء لأن الإلحاح على دور الذات المبدعة واعتبارها على وجود الأثر ومبدأ وحدته، أمر لا تقر عليه الاركيولوجيا المعرفة[3].

1- المصدر نفسه ، ص 128

2- المصدر نفسه، ص 129.

3- عبد الوهاب جعفر: البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشال فوكو، دار المعارف، ط1، 1989، ص 95.

وفي الحقيقة فإن الفكرة المثالية عن الذات هي التي لعبت دور في التصور الذي كونه المؤرخ عن التاريخ فإذا نظرنا للذات على أنها أساس أيضا لموضوعه، فإن التاريخ سينظر إليه على انه متصل ولذا فإن الاتجاهات الثنائية الحديثة قد أعادت النظر في "الكوجيتو" باعتباره وظيفة مؤسسة فمهما كان نوع الخطاب يجب النظر إليه على انه نص كباقي النصوص الأخرى دون إضفائه بحالة من الذاتية تجعل من جوهر ممارسته مغطى لا يتمكن الباحث الاركيولوجي فيه مهما كان مصدرها وبهذا يصل التاريخ الى تحقيق الموضوعية متجاوزاً نسقه التحليلي المتافيزيقي، أخر الخصائص التي يفردها "فوكو" للأركيولوجيا نفيه أن تكون محاولة لترديد ما قيل من خلال التعمق في ماهية الخطاب وهويته[1].

إن التحليل "الأركيولو" لا يسعى عن البنية النفسية للنص من خلال ربطها بالمؤلف، فالتعامل يكون مع الخطاب منعزلا، بمعنى أن الخطاب كأرشيف، مختلف عن باقي العناصر الأخرى، التي من شأنها أن تبعده عن سياقه الحقيقي، ويكون تحليل منطوقات الخطاب والكشف على أثارها ومدى ارتباطها بالواقع الذي ظهرت فيه.

من خلال أهم الخصائص التي تتميز بها الاركيولوجي، نلاحظ بأنها تبرز كمنهج قائم بذاته متميز عن بقية الخطاب الذي يعتبر موضوعها ومادة دراستها إضافة على تلك المبادئ التي تميز الاريكولوجيا نلمس فيها انسجاما وتنافسا على أبعد الحدود، فكل خاصة ستحدد بأنها لها فاعلية في وصف البنى المعرفية وسنجدها حاضرة في نقد مختلف الخطابات التي بينت على أساسها الحضارة الغربية يتم ذلك عن طريق أربع مفاهيم أساسية يحددها "فوكو" بالتسلسل الأتي: مفهوم الحادث، مفهوم السلسلة، مفهوم للإطراد، مفهوم شرط الإمكان، حيث يرى "فوكو" أن هذه المفاهيم تعتبر وجهاً حقيقيا للتمايز بين منهجيته وتاريخ الأفكار فالحادث يتعارض مع الخلق والإبداع، وتتعارض السلسلة مع الوحدة والإطراد يتعارض مع الطريقة، وشرط الإمكان يتعارض مع الدلالة [2] يقول "فوكو" تنفصل إذن الاركيولوجيا عن تاريخ الأفكار سواء على مستوى الموضوع أو الهدف أو المبادئ والقواعد المعتمدة ويلخص "فوكو" هذا التمايز في قوله "إن وصف الخطاب يتعارض ومنهجية تاريخ الفكر فالأمر في تاريخ الفكر يتعلق بإعادة إنشاء خطاب جديد،

---

[1]- المرجع السابق، ص 98-99

[2]- ميشال فوكو: جينيالوجيا المعرفة ، نظام الخطاب، ترجمة أحمد السلطاني وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، المغرب ،ط 2، 2008 ، ص 129

فهو دوما وباستمرار يسعى على البحث عن المعنى الحقيقي وراء المعنى المجازي أما تحليل الخطاب فهمه الأساسي هو التعامل مع العبارة كشيء قائم الذات لا يخيل إلى مستوى آخر له خصوصيته وتميزه كحدث لا أصول له وتحديد شروط وجوده"[1].

3. أصول المنهج الاركيولوجي

يمثل "نيتشيه" نقطة إبداع قصوري في الفكر الإنساني عموما، والغربي على وجه الخصوص، نظراً الى ما قدمه من جديد على مستوى قراءة التراث الغربي، بدءا من الملاحظة الديمقراطية،وعند ذكر "نيتشه" مباشرة يحيل ذلك الى المنهج والطرقة التي أسس لها لدراسة المنظومة الأخلاقية، وهو المنهج الجينالوجي (La généalogie) هذه الطرقة التي كانت لها مكانة كبيرة عند المفكرين والفلاسفة المعاصرين الذين حاولوا مواصلة المغامرة النيتشوية النقدية في تعريفه البنية الحضارية الغربية.

ومن ابرز المتحمسين للطريقة النيتشوية وخصوصا في آليات النقد واقتحام العوالم، نجد "ميشيل فوكو"، الذي لم ينف ابد صلته الوثيقة بنيتشه، بل على العكس من ذلك فهو يعترف بالأثر النيتشوي على توجيه الفلسفي، ويتجلى ذلك من خلال أفراد نيتشه بنصين في غاية الأهمية، حيث يعتبرها النقاد من أهم ما كتبه "فوكو" فلم يكن يخف "فوكو" أبدا أن مشروعه استمرار ومواصلة لما قام به "نيتشه"، أو عبارة عن تكملة للهدم الذي افتتح بوابته "نيتشه"، فإن كان "نيتشه " قد توقف عند حدود المنظومة القيمة فإن "فوكو"، سيستعيد في نقده ليطال المعول الاركيولوجي، مختلف الحقول المعرفية التي شيدتها الحضارة الغربية على مر قرون من الزمن.

يؤكد "فوكو" على احد مقالاته بأن مصيره الفلسفي كان محددا بقراءة "هايدغر" الذي يعترف أن " نيتشه " قد أستأثر في الأخير باهتمامه ويضيف مؤكدا أنا ببساطة " نيتشه " أحاول بقدر الإمكان أن أرى بخصوص عدد من النقاط بمساعدة نصوص " نيتشه " ولكن مع ذلك بأطروحات مضادة لنيتشه ما يمكن أن نعمل في هذا المجال أو ذلك. لا أبحث عن أي شيء آخر

1- ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 127

ولكني ابحث عن هذا الحق [1]. وهذا ما تثبته قراءة لفلسفة "فوكو" وإبداعاته، فالطابع النيتشوي حاضر في جل أعماله، سواء من حيث طبيعة اشكلة الموضوعات أو المفاهيم المستعملة أو من خلال التحليلات الجينالوجية لقضايا ومشكلات عدة،وفي هذا السياق برزت إشكالة علاقة "فوكو" بـــ "نيتشه" خصوصا وأنه اعتمد على جينولوجيا في تحليلاته لعديد من القضايا التي كانت محل اهتمامه،فهل "فوكو" جينالوجي أم أركيولوجي؟أم هناك تكامل بين المنهجين في مشروعه النقدي؟

لا يمثل "نتشه" بالنسبة لـــ "فوكو" فيلسوفا مبدعاً فحسب بل إنه رجل أقلب موازين الفكر، حيث استطاع من خلال الجينيالوجيا طمس معالم الوثنية الوثوقية التي طبعت بها التحليلات التاريخية فاتحا الأبواب أمام التجديد والانفتاح والخروج من قبضة النسقية التي كبلت الفكر بأغلال المسلمات أو بالأحرى المقدسات التي لاشك فيها ولا نقد، حيث تمكنت الجينيالوجيا من إحياء الحس النقدي في التحليل التاريخي، فأعيدت صياغة إشكالية كبريات المسائل الفلسفية وخاصة من جانبها التأويلي ويقر "فوكو" في هذا السياق بأن "كتاب رأس المال ونصوص مثل مولد المأساة وجينيالوجيا الأخلاق. وتأويل الأحلام إن هاته النصوص تطرح أمامنا تقنيات للتأويل" [2] فهذه المصنفات الكبرى التي خلفها تبعث للتأويل الروح التجديد والإبداعية من خلال أثرها البالغ في تغيير المسار الفلسفي كونها خرجت عن المألوف في قراءة النصوص باختلافها، فنتشه لم يكن مقتنعاً بما كان سائداً في عصره من نسق معرفي فقد ثار ضد المقولات الجاهزة وراح ينتقد تلك المباني الميتافيزيقية التي أَسست لها الحضارة الغربية منذ العهد اليوناني، عن طريق الجينالوجيا التي تعمل على تفويض الأسس الفكرية المبنية على هوامش الميتافيزيقيا. هذه المهمة الجينيالوجية التي بداها بنتشه، سيواصلها من بعده "فوكو" ولكن بآليات مختلفة ومغايرة مزج فيها "فوكو" بين الجينيالوجيا والاركيولوجيا، ويعود ذلك لأبيات علمية تمثلت في عجز الاركيولوجيا عن مواجهة بعض المشكلات العلمية، إضافة إلى أحداث ماي 1968 ومأثاره في قضايا سياسية، لا يمكن

1- السيد ولد أباه: التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط2، 2004، ص 74.

2- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 46

دراستها إلا جيانولوجيا، ومن أهمها قضية السلطة في جميع مجالاتها، وبتعدد معانيها وتجلياتها وآلياتها[1].

وفي هذه الزاوية يرى "فوكو" أنه يجب على الجينيالوجيا، أن تخوض معركتها ضد اثار السلطة الخاصة، بالخطابات المعتبرة علمية [2]، هذا العجز الذي يميز الاركيولوجيا، هو ما سيحاول "فوكو" استدراكه عن طريق الجينالوجيا التي عرفها في درسه الافتتاحي بالكوليج دي فرانس، في السابع من شهر ماي في 1976، بقوله الجينيالوجيات وبدقة أكبر هي استراتجيات وتكتيكيات وهي مناهضة العلوم ومناهضة كل الآثار المركزة لسلطة مرتبطة بمؤسسة ما.

وبطريقة عمل خطاب علمي، أو لطريقة توظيف خطاب علمي، منظم داخل مجتمعاتنا [3] هذه هي الوظيفة التي تعنى بها الجينيالوجي، كونها منهج يتبع الأصول والبدايات في المحاولات المختلفة، وقد استثمر "فوكو" هذا وكان ذلك عنواناً لكتاب جينيالوجيا الأخلاق، حيث غذت الفلسفة مع نيتشه، بحثا في الأصول والمناهج التي أسست لمنظومة أخلاقية مطلقة. فالجينيالوجيا تقوم بالكشف عن الأقنعة التي وضعت خلفها القيم السامية المعهودة في المجتمعات بأسرها، تحت لواء سلطة الضمير الخلقي، من قبيل العدالة الصدق.. الخ، وفقا للمعيار الخير والشر، فالتاريخ الجينالوجي لا يستجيب للمتافيزيفيا وما تفرضه من قيود على الفكر بل أنه تاريخ نقدي، قائم على التناقض والانحراف ومدعاة للغيظ والقلق، حيث عبر "فوكو" عن هذه الفكرة في قوله "أن التاريخ عبارة عن فائض في التنبؤ الميتافيزيقي قائم على تصر الأصل الأسى عبارة عن فائض في النبؤ الميتافيزيقي قائم على تصور مؤداه أن الأشياء في بدئها تتوفر على ما هو نفيس جد أو جوهري جدا"[4].

فالجينيالوجيا النيتشوية ثارت ضد مقولة الأمل وما يكتبه من قداسة لأن التاريخ الميتافيزيقي اعلي من سلطة الأمل وجعل منها مقولة مركزية في توجيه البحث التاريخي.

1- الزواوي بغورة، المرجع السابق، ص 126

2- ميشال فوكو: يجب الدفاع عن المجتمع، دروس القيت في الكوليج دي فرناس، تر: الزواوي بغورة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2003، ص 37

3- ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، المصدر السابق، ص 38

4- المصدر نفسه، ص 66

إن التقاطع "النيتشوي الفوكوي" يمكن أساسا في نبذ مسلمة الأصل كمواطن للحقيقة، فلا يجب إهدار الجهد في البحث عن أصل لا نضمن نتائج صدقه، بل قد يضع ذلك الأمل بالذات قد يضيع لحمل لنا معه حقائق مزيفة تبدي لنا بأنها صحيحة، وهذا ما يجرنا في نظر "فوكو" الى قلب معادلة هذا التاريخ الملأ بالحقائق المزيفة "لأن وراء كل حقيقة راهنة مقيلة كثرة كاثرة من الأخطاء فلا يصدق أحد أن الحقيقة تبقى حقيقة ونحن نرفع عنها الحجاب" [1] لأن الحقيقة في الأصل هي نوع من الخطأ، عمل التاريخ على التأمل لها وإثباتها تاريخ خاطئ يحمل الحقيقة، ظل يُوهِم الإنسان بخطابات جاهزة يسلم بها دون أدنى نقد أو تحليله كان لزاما على الباحثين الاستغناء عن فكرة البحث في الأصول كونها راعي الحقيقة والحامل لها بل يجب الاتجاه صوب البدايات بإتباع الأثر الجينيالوجي لمختلف الحقول المعرفية، لأنه لن تتأتى لنا جينيالوجياً القيم والأخلاق والزهد والمعرفة عن طريق البحث في الأصل والإهمال لكل مراحل التاريخ، بل من باب الوقوف الطويل والمتأني عند البدايات بكل تفاصيلها واتفاقاتها والاهتمام الدقيق بقبحها وسخفها وانتظار بزوغ طلعتها من غير أقنعة وبوجه آخر[2].

إن البحث عن البدايات إذن: يمثل مفصل العمل الجنيالوجي دون إهمال لأي مرحلة من مراحل التاريخ، وبهذا المعنى سيكون البحث في تاريخ لا يعرف التجزئة والتمزق بل أن مراحله مكملة لبعضها، ولا يعني هذا أن التاريخ الذي تبحثه الجينيالوجي تطبعه فكرة التواصلية بل على العكس من ذلك إن تاريخ يقوم على الانفصال والقطيعة ويطلق "نتشه" على هذا النوع من التاريخ أحسن التاريخي وهو مخالف تماما لباقي الأشكال الأخرى من التاريخ الكلي.

يمكن ضبط الدرس الأساسي الذي استلهمه "فوكو" من نتشه في الربط بين تاريخه المفاهيم والمقولات وتاريخه العقل وعلاقاتها بالجسد بالكشف عن الأصوال المعيارية لمختلف المقولاته المبنية على العقل كسند لها[3].

فهي في حقيقة الأمر مرتبطة بالجسد، هذا الأخير الذي يعد صناعة تاريخية، فالتاريخ هو من يضع مختلف المفاهيم المتداولة التي ترد في حقيقتها المنظومة للجس وعصبيته ومزاجه وجهازه

1- ميشال فوكو، جينيالوجيا المعرفة، المصدر السابق، ص 66

2- المصدر نفسه، ص 67

3- السيد ولد اباه: المرجع السابق، ص 75.

الهضمي لأن الجسد وما يتصل له من مناخ وتربة هو المكان الصالح قد نعثر فوق الجسد على اثأر الحوادث الماضية، لأن الجينيالوجي باعتبارها تحليلا للمصدر، فنجد تلاحم مع الجسد والتاريخ[1] فالاعتقاد بأن الجسد محتكم إلى القوانين الفيزيولوجيا هو عين الخطأ لأن الجسد يخضع لسلسلة من الأنظمة التي تهيكله من خلال مجموع ما يتوارثه من مجتمعه من سموم العادات والتقاليد المعاشة في ظل المجتمع عبر التاريخ. هذا ما يحيلنا إلى أن التاريخ الجينيالوجي تتحدد موضوعاته في السلطة المعرفة والجسد، ويكون ذلك بالابتعاد عن المناهج التاريخية التقليدية التي تبحث عن التاريخ في كليته، في حين أن الجينيالوجيا لا تُعَرَفْ، إنما المقاطع التي من شأنها تحديد معالم المعارف المتشكلة، هذه الانقطاعات قد تبدو سطحية، غير أنها ذات أهمية بكثير من البحث عن الأعماق والتوغل في متاهات الميتافيزيقيا، يمثل التاريخ الفعلي أو الجينيالوجي، تلك المعرفة التفاضلية للقوة والضعف، فهو العين التي بها تتبصر الحقائق الكامنة وراءها تشاهده عينانا في الواقع، بأنه تجاوز لكل ما هو متداول وثابت، إضافة إلى انه تاريخ تلك الحقائق التي ظلت الميتافيزيقيا سرها وراء قضبان الأصل الزائف. ومن هنا نلمس الأثر الجينيالوجي الأثر النيتشيوي في الاركيوولجيا الفوكوية، بحكم أن كلا المنهجين يقوم على الوصف طريقة في الدراسة والتحليل يبدو أن لكل منهما مجالاته الخاصة به.

فوظيفة الاركيولوجيا كما حددها "فوكو" تتمحور في تحليل الخطابات عن طريق استبدال الوضوح الذي طبعته به بوضوح أخر، وانتقادات الحقيقة وزعزعة تنفيذها الذي تميزت به، في حين أن الجينيالوجي تعمل على كشف الغطاء عن الدور الذي لعبه التاريخ في تبلوره تلك الموضوعات التي وصفت أركيولوجيا، وبالخصوص تتبين الأثر السلطوي في التأسيس لصحة الخطاب ومعقوليته[2].

يتضح مما سبق أن الجينالوجيا شكلت بالنسبة لــ"فوكو" المدخل الأساسي لسلسلة الأبحاث الاركيولوجية لوصف مختلف الخطابات والممارسات الخطابية، فلكي تكتمل المهمة التي أوكلها "فوكو" لنفسه كان لزاما ما عليه تنقيح أبحاثه الاركيولوجية بتدعيمها ببعض اللمسات الجينالوجية

1- ميشال فوكو: جينيالوجيا المعرفة، المصدر نفسه، ص 71

2- ميشال فوكو: يجب الدفاع عن المجتمع، المصدر السابق، ص ص 38-39

المستوحاة من "نتشيه"، حيث يعترف "فوكو" أنه كان لزاماً أي ينشأ بين الوصف النقدي والوصف الجينيالوجي نوع من التجارب والتآزر والتكامل[1].

نستنتج من التحليل السابق أن "فوكو" سار في تيار الفلسفة النتشوية، سواء من حيث الموضوعات أو المفاهيم المستعملة، أو المنهج المستخدم أو الهدف المنشود المتمثل أساسا في تقويض مختلف البنى الميتافيزيقيا ومجاوزتها، على غرار ما قام به هايدغر، ديردا، دولوز، ومختلف أقطاب الفلسفة النقدية المعاصرة أملا في الانفلات من القبضة النسقية التي فرضتها الفلسفة الهيجلية ومحاولة لإحياء الذات التي أفل وجودها الأصيل.

1- ميشال فوكو، جينيالوجيا المعرفة، المصدر السابق، ص 37



الفصل الثاني

الجنون من الجسد إلى التعبير اللغوي

1 الجنون وممارسات السلطة

2. الجسد وآليات العزل عند ميشال فوكو

3.علاقة الجنون باللغة عند ميشال فوكو

1. الجنون وممارسات السلطة

تبدأ رحلة الجنون مع الهرم الثلاثي اليوناني، فمنذ سقراط وأفلاطون وصولا إلى أرسطو قدس العقل، و اعتبر الجوهر الذي يعزى إليه أي تفريق بين الإنسان ومختلف الموجودات، فقد عرفت الفلسفة اليونانية على أنه ذلك الحيوان العاقل مؤسسة بذلك لخطاب العقل على حساب اللاعقل، فقد اعتبر أرسطو أن الفلسفة الحقة تبدأ مع "طاليس" اللحظة التي تخلى فيها الإنسان عن مختلف تفكير الميتولوجي Mythologie واهتدائه التفكير العلمي، المبني اساسا على العقل في فهم مختلف الظواهر المحيطة بالإنسان، وتستمر رحلة العقل إلى القرن السابع عشر مع ديكارت فاللحظة الديكارتية تعتبر من أهم المحطات في الفكر الغربي لأنها شهدت اكبر الانتصارات للعقلانية وابرز اقصاء للخطاب المخالف أي خطاب الجنون إن الممارسات الاقصائية والقمعية لمن اعتبروا مجانين هي ما شد انتباه ميشال فوكو لدراسة هذه الظاهرة.

إن سؤال الجنون هو سؤال الحقيقة أين تكمن وفيما تتمثل لهذا فإن معالجة إشكالية "فوكو" الجنون تتمحور حول الجنون نفسه بمعنى الكشف عن خطاب الجنون بالإصغاء الى تلك اللغة التي صامتة على مدى قرون من الزمن فطرح ظلت الفوكو، يبتعد عن مختلف التحليلات النفسية، حيث أتفه "فوكو" الى دراسة الجنون كظاهرة حضارية وثقافية، بل وكعامل جدا سامي في بناء وتكوين للواقع الثقافي، ودراسته في بعده المعرفي في إطار ثنائية العقل والجنون.

إن هذا السؤال المحوري في الفن الإنساني – السؤال الجنون – يعتبر سؤلا تاريخيا يدخل في إطارها يسميه "فوكو" بتاريخ الحاضر وهو سؤال يهتم بتحليل الشروط التاريخية لتشكيل المعرفة، من خلال التقسيم التاريخية لأهم الحقبات الزمنية التي مرت بها الحضارة الغربية، يبدءا من عصر النهضة مرور بالعصر الكلاسيكي، وصولا الى العصر الحديث[1].

[1]– الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 2000 م، ص 151.

2. الجسد وآليات العزل عند ميشال فوكو

الجنون في العصر الكلاسيكي الذي يتحدث عنه "فوكو" في دراسته للجنون، هو فترة وجيزة جدا من تاريخ الإنسانية أي الحقبة التي تمتد من القرن التاسع عشر الى التاريخ كتابة لكتاب تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي وأحداثها في أوروبا بالتحديد فرنسا، وفي ثنايا صفحات كتابه هذا يبتلى القارئ نوع من الذهول حيال ما كان يحدث من ممارسات في العالم الغربي إزاء من اعتبروا مجانين[1]. وعلى حد تعبير "فوكو" في العصور الوسطى مع انتشار أمراض معدية من قبيل الجذام[*]، والأمراض التناسلية فمورست في حق المصابين بها جميع سبل العزل والتهميش كبناء مستشفيات خاصة بالمرضى بغاية عزلهم عن الأصحاء في المجتمع.

لكن بعد اختفاء الجذام لم تختفي معه مظاهر الإقصاء تلك، فتشهد الأماكن ذاتها نفس لعبة الإقصاء قرنين أو ثلاثة بعد ذلك، لقد استمرت الإشكال حية، بإحالات دلالية جديدة ومن ثقافة مختلفة، خاصة تلك المتعلقة بالفصل الدقيق الذي يعد اقصاءا اجتماعيا، وكلن ينظر إليه باعتباره إدماجا روحيا[2] وقبل إن يستعرض "فوكو" مظاهر الإكراه لظواهر الأمراض التناسلية في القرن الخامس عشر، إلا أن التدابير الاقصائية لهذا المرض لم تدم و لم تكن بالحدة نفسها التي مورست إزاء الجذام لأن الأمراض التناسلية تحتل موقعها ضمن باقي الأمراض الأخرى[3].

توارى الجذام إذن لكنه خلق إرثا لا يستهان به من إكراه وعزل وتهميش وإقصاء فللكشف عن هذه المظاهر يرى "فوكو" أنه ينبغي أن تتجه إلى ابعد جراسة مجموعة الأمراض التناسلية التي ظهرت بعده وخلفت مكانة لا بل يجب البحث عنه في ظاهرة أشد تعقيداً لم يكتشفها الطب.

إنه مرض الجنون الذي ظل في حالة كمون، أو لنقل تغيب ونسيان لمدة قرنين من الزمان ففي القرون الوسطى كان الجنون رمزاً للقداسة، يحيط به الغموض من كل الجوانب، وعادة ما

1- المرجع نفسه، ص 151

*- الجذام بالغة الفرنسية La lèpre والانجليزية Le prosy مرض خطير تسببه الفطريات الجذامية، ينتشر ف يالمناطق الاستوائية وشبه الاستوائية في افريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، يصنف مع الامراض المدارية المهملة فترة حضانته طويلة والمناطق التي تتعرض للاصابة في الجلد أو الاعصاب كلاهما يعزل المصابين بهذا المرض باما كف خاصة أنظر wwwwikkippedia.org

2- المصدر نفسه، ص 27

3- المصدر نفسه، ص 28

تنسب اليه أعظم الخوارق وما سبب ذلك أنه ظاهرة منبوذة اجتماعيا وغير متعارف عليها "فالجنون في تلك الفترة كان يشير السخرية والاستهزاء، والمخاوف الخرافية والروح الشيطانية"[1].

للتغيير هذه النظرة مع حلول عصر النهضة، حيث سيظهر الجنون وسيعامل كما هو الحال بالنسبة للهصور الوسطى إذ يعرف نفس الحالات العزل والإقصاء للتطهير وهي حالات التي ستلازم جوده فمع بداية عصر النهضة، ستظهر مجموعة من الكتابات والأعمال الأدبية التي يشكل الجنون محورها الأساسي، وهذا ما تعثر عليه فيما يرى "فوكو" في الأداب العالمية، حيث كان الجنون في صلب العقل والحقيقة ومن أشهر الأعمال التي تحدثت عن الجنون، نجد سفينة الحمقى "بارانت" ومن هنا سيتحول الجنون إلى موضوع الخطاب، فهو يتحدث عن نفسه يدان ويدافع عن نفسه، ويطالب بأن قريباً من السعادة والحقيقة والعقل أن يكون أقرب من العقل إلى العقل ذاته[2].

مع الترعة الإنسانية مع "ايرازم" Erasme وغيره من المبدعين الذين صوروا دائماً الجنون على أساس التقابل بين العقل واللاعقل، ستتغير النظرة إلى الجنون إذ لم في هذه المرحلة يمثل مدر ازعاج اجتماعي بالرغم من مختلف الآليات التي اعتمدت في نبذة، إضافة أن الجنون في هذه المرحلة سيغدو ذو طابع معرفي، فأصبح مصدراً للإلهام بالنسبة لمعظم الانتخابات في الحقول المرعفية المختلفة، وبالخصوص الأعمال الأدبية حيث شكلت شخصية المجنون مصدراً للإبداع إذا كان الجنون يدفع إلى الافتنان لأنه يشكل معرفة[3].

معرفة صعبة أن يمتلكها العقل أو يحيط بها، فهي معرفة منحصرة على فئة المجانين لا غيرهم من الأصحاء، فكان المجنون وحده المالك لهذه المعرفة المفارقة للعقل.

ويعود "فوكو" للحديث عن دور ايرازم في تحديد النظرة إلى الجنون فبعد أن كان يعتقد مع "بوش" أن الجنون يتربص بالإنسان منكل الجوانب إذا وضع في خانة الأمراض العضوية الآخرين التي قد تصيب الذات في أي وقت فالنظرة السائدة مع بوش.

1- ميشل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، المرجع السابق، ص 27

2- المصدر السابق، ص 35

3- المصدر نفسه، ص 42

تتمحور في نفي الجنون من مستوى الذات باعتباره مفارقا لها إلا أن هذا التصور يعرف نوعاً من التغيير مع ايرازم، وأدباء النزعة الإنسانية الذين يعملون على التأسيس لخطاب الثنائيات ليصبح الجنون متضمناً في الإنسان بل هو الرابط الدقيق الذي يربط الإنسان بنفسه [1]. بمعنى أن الجنون اعتبر موازيا للعقل فهما متلازمان في الحضور إذ لا يعني وجود العقل انتفاء امكانية الجنون.

أهم ما يمكن استنتاجه مما سبق، أن التصور السائد في عصر النهضة حول الجنون حول الجنون هو تلك المقابلات الحادة بين العقل واللاعقل، أو بين الجنون والعقل، هذه العلاقة التي يلخصها فوكو بقوله "لقد أصبح الجنون شكلا مرتبطاً بالعقل، أو أصبح الجنون والعقل منتظمين داخل علاقة أبدية لفكاك منها"، وهي علاقة تجعل لكل جنون عقلا يحكم عليه ويتحكم فيه، وكل عقل له جنونه الذي يتجدد داخله حقيقته التافهة[2].

فقد كان الجنون حاضراً بقوة في خطاب عصر النهضة، وكان حضوره متجليا في معظم الأعمال الأدبية مثل أعمل: سرفتس Cervites شكسبير Chekspire ايرازم، وغيرهم من أدباء عصر عمر النهضة الذين اسسو الخطاب الثنائيا ت، فا يعي أن تملك عقلاني تكون في مأمن من الجنون لأن الجنون ملازم للعقل[3].

إن الجنون ملازم للعقل، بل ومتضمن فيه أيضا فكل عقل له جنونه الخاص به، وكل جنون يتحدث بمنطقه الخاص به، ستختفي هذه المرحلة، لتحدث قطعية ابستولوجية في المسار التاريخي لظاهرة الجنون، يؤرخ لها "فوكو" باللحظة الديكارتية لحظة تسلط العقل، لحظة العقلانية في ذروة طغيانها مختلف الإنسان، وهو ما يصطلح عليه "فوكو" بالعمر الكلاسيكية ففي أواسط القرن السابع عشر، وبالضبط 1641 م، يصدر ديكارت كتابه التأملات الميتافيزيقية Méditation métaphysique ومن المعروف عن ديكارت انه تعتبر نقطة تاريخ هامة في الفكر الغربي.

بدأ ديكارت رحلته الفلسفية بالشك، شك في وجود حالات في وجود العالم وفي وجود الله، ولإزالة هذا الريب بدأ في إثباته، بدءا بإثبات وجوده بدلالة الأنا المفكرة، فيكون للذات أن تكون مفكرة عن تتيقن من وجودها، وكنيته لهذا أصاغ ديكارت الكوجيطو "انأ افرك أنا موجود"

1- ميشل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص 46
2- المصدر نفسه، ص 51.
3- المصدر نفسه، ص 53.

ثم اثبت وجود عن طريق دليل الكمال، الذي يعتبر فكرة فطرية خالصة بعيدة عن كل معطى تجريبي والنتيجة المترتبة عن هذا أن يكون الله دعما وسندا ودليلا على وجود العالم.

وانطلاقا مما سبق من إثباتات اعتبر ديكارت أن معيار المعرفة الصحيحة هو العقل لأن الحواس وما تنقله لنا من معارف، غالبا ما تكون خاطئة فيكفي أن تكون الموضوعات بديهية للعقل لكي تكون صادقة، صدقا مطلقا لا شك فيه وهذا ما بينه من خلال قواعد المنهج التي حددها في مؤلفه "مقال في الطريقة Le discours de la méthode"[1] وعن طريق الشك ألتقي ديكارت بالعلم و الخطأ والوهم.

التقى بالجنون أيضا، فأثبتت ذاته عن طريق دلالة التفكير الذي يعتبر أساسه العقل، فنفى ديكارت الجنون بشكل نهائي من منطلق أن الذات جوهر مفكر، فانتفت المعرفة عن الجنون، إن قراءة "فوكو"، للنص الديكارتي تختلف عن باقي القراءات الأخرى لأن "فوكو" يرى أنه على الرغم من خطأ الحواس إلا أنها تتميز بقدر معين من المصداقية لكون الأشياء تتمتع بقليل من الحساسية أما في حالة الحلم، فكل التخيلات قد تقود الى نوع من الحقيقة أو حتى علامات لها، أما بالنسبة للجنون فإن الأمر يختلف عليه، فما دمت أنا الذي يفكر لا يمكنني أن أكون مجنونا، فعندما أعتقد أنني أمتلك جسداً[2].

فكانت قراءة "فوكو" للنص الديكارتي مرتبطة بالجنون في علاقاته بالحقيقة، حيث اعتبر ديكارت أن بديات الجنون تبدأ مع اضطرابا ت علاقة الذات بالحقيقة ومن هذه الزاوية ألفى الخطأ والوهم والحواس والجنون من الفعل المعرفي[3].

يمكن القول أن العصر الكلاسيكي تميز بالحجز والإكراه والقمع بكل الوسائل، وما ترتب عن هذا إسكات صوت الجنون مقارنة بعصر النهضة والفصل بشكل مطلق بين ثنائيتي العقل واللاعقل مع رد الجنون إلى اعتبارات أخرى، منها ما هو أخلاقي اجتماعي واقتصادي أيضا، من خلال استغلال المحجوزين كيد عاملة رخيصة، فلم يكن من سبيل إلى ذلك غير

[1]- ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي.

2- ميشال فوكو، المصدر نفسه، ص 68

3- المصدر نفسه، ص 69

اعتقاد المستشفى الحجز، فالقرن الـــ 17 سيصفي حسابه مع هذه الوحدة من خلال قطيعته بين العقل واللاعقل[1].

يقول "فوكو" إن النظرة إلى الجنون ستأخذ بعداً آخر مرتبط بشكل مباشر بالاستلاب لكنه (الاستلاب) يختلف في جوهر عن الشكل الذي سبقه في العصر الكلاسيكي إنه استلاب الأطباء في تعاملهم مع الجنون لا كظاهرة مرضية ذات بعد نفسي بل أن التعامل مع الجنون كان على مستوى الجسد، وهنا سيوضع الجنون في توسط بين الإنسان ووسطه الذي يعيش فيه، بمعنى ربط الوسط الذي تنشأ في الذات، وقد كان لهيجل، الأثر الكبير في تغيير النظرة حول الجنون حين رأى أن العلاج السيكولوجي الفعلي يرتبط بالتصور القائل أن الجنون ليس فقدان للعقل بصفة مطلقة لا من جهة الذكاء ولا من جهة الإدارة والمسؤولية، بل هو مجرد خلل في الذهن كالمرض الذي لا يعتبر فقدانا تاما للجسد بل هو تناقض يصيبه، فهذا التعامل الإنساني في القائم على العناية العاقلة للجنون. يفترض أن المريض لديه عقل أساس متين في التعامل مع الجنون من هذه الجهة[2].

3. الجسد وآليات العزل عند ميشال فوكو.

أولا: الجسد عند فوكو: هذه الإشكالية وغيرها ما بينه "فوكو" في كتابه "المراقبة والمعاقبة" ولادة السجن الصادر في سنة 1975 وحاول من خلاله "فوكو" إقامة أركيولوجيا المنظومة للعقابية معالجا إشكالية العقاب وتحويلها من فن تعذيب أو تطويع الجسد، على فن تعذيب الروح، بأسلوب أدبي في قمة الإبداعية، وفي مستوى تحليلي لا يهمل فيه أي جزئية وما توحي به من دلالات سعيا للكشف عن تمظهرات الخطاب السلطوي وآلياته المنتهجة في ترويض الجسد وتطويعه.

ويفتتح "فوكو" المراقبة والمعاقبة بتوطئة سردية، يروي فيها قصة القديس "روبرت فنسوا دأميان" (1715-1757) وكيف مورست في حقه أنواع التعذيب البربرية التي لا تمت بصلة إلى ما هو إنساني، يقول "فوكو" حكم على داميان في الثاني من آذار مارس، سنة 1757 بأن يدفع غرامة معنوية في الإقرار بذنبه علنا أمام باب كنيسة باريس الرئيسي يسحب ويقاد في عربة عاريا حاملا "مشعلاً" من الشمع الملتهب وزنه قرابة الكيلوغرام، ثم يقرص بالقارصة في حلمتيه وذراعه وركبته وشحمات فخذيه على أن يحل في يده اليمنى السكين التي بها ارتكبت الجريمة المذكرة [....] ثم

1- المصدر نفسه، ص 110

2- ميشل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مصدر سابق، ص 475

تحرق يده بنار الكبريت وفوق المواضيع التي قرض فيها بوضع رصاص مذوب، وزيت محمي وقار صمغي حارق وشمع وكبريت ممزوجان معاً، وبعدها يمزق جسده ويقطع بواسطة أربعة أحصنة، ثم تتلف أوصاله وجسده بالنار حتى تتحول إلى رماد يذري في الهواء[1].

يحيلنا هذا النص إلى استفراد الواقع العقابي قبل الثورة الفرنسية حيث كانت السلطة تعذب المجرمين والمذنبين من المجتمع وفقا لمواد قانونية صارمة، تحدد من خلالها أسلوب التعذيب الخاص بالجريمة ففي العصر الملكي كانت العقوبة تتم في الساحات العامة بحضور حيث دمن العامة.

المتفرجين على جسد المعذب وهو يعرض لأشد أنواع التنكيل الجسدي والنفسي على حد السواء، إضافة الى إن التعذيب في هذه الفترة كان متجها أساسا الى الجسد.

حيث ذكر "فوكو" أنه في سنة 1670 اصدر القصر الملكي للأشغال العامة للممارسة العقابية المتضمن أشكال التعذيب والعقوبات التي فرضتها السلطة الملكية، تمثلت اساسا في الموت السؤال مع التحفظ على الأدلة الأشغال الشاقة المؤقتة، الجلد الغرامة الإقرار بالذنب علنا مع الاعتذار (التوبة) النقي[2].

أهم ما تميزت به العقوبة في المرحلة الكلاسيكية في العلنية في مقابل السرية فقد كانت الجريمة معروضة لدى الجميع مهما كان نوعها، والأمر نفسه بالنسبة للعقوبة فقد كانت علنية أكثر منها سرية، متوحشة أكثر منها متحضرة وجسدية أكثر منها روحية، كل هذه الوقائع المنافية للطبيعة الإنسانية، بينت على فكرة تطويع الجسد، فقد نظر المشرعون للجريمة على أنها انحراف داخل النسيج العام للمجتمع[3].

وفي ظل هذا المتعصب تجاه جسد المذنبين، مورست أنواع شتى من التعذيب، من قبيل الإعدام الربط إلى عمود. والعرض والجلد والغل، وعموما فكل جريمة لها ما يقابلها من عقوبة بمعنى أن التعذيب يظهر ضمن دلالة من العقوبة ذات نسبة من الجدية يجب أن تتضمن شيء ما من التعذيب[4].

---

[1]- ميشل فوكو، المراقبة والمعاقبة (تر: على مقلد، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنصات القومي، بيروت، لبنان، 1990، ص 47

2- المصدر نفسه، ص 70

3- ميشل فوكو، المصدر نفسه، ص 71

4- عمر مهيبل البنوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1999، ص 13

الموجه الى الجسد بحكم أنه الأداة والوسيلة الأنسب للتطويع والتهذيب لكل من خرج عن القانون أو السلطة المعمول بها، مما يدل على أن التعذيب "عقاب جسدي مؤلم، يتفاقم إلى الفضاعة".

يهتم "فوكو" بالتشريح السياسي للجسد وتوظيفه في العلاقات السلطوية من خلال، ملاحظة التحولات الجزائية نتيجة التكنولوجيا السياسيةِ للجسد[1].

ومن هنا تتضح كيفية استثمار الجسدي كآلية تستغلها السلطة في فرض هيمنتها في العصر الكلاسيكي، فالتعذيب اخذ بعداً سياسيا.

لأن قوة السلطة تشتد من خلال التعذيب وبناء على هذا لا تنحصر وظيفته في إعادة التوازن للبنية الاجتماعية فحسب بل إنه مظهر الممارسات السلطوية.

3.: السجن

يؤرخ "فوكو" لتاريخ السياسة وأنظمة المراقبة فهي تؤسس للمراقبة من خلال تاريخ السجن، فيعتبر آلية، من آليات السلطة في قمع وسلب الإنسان، ويعتبر كتاب المراقبة والمعاقبة "أهم الكتب التي تحدث فيها فوكو. عن ولادة السجن والذي هو مكان مغلق تتجه فيه إلى تجريد الشخص من حريته الخاصة، بفعل قرار من العدالة وهو مؤسسة كاملة وصارمة[2].

واصل "فوكو" استقصاءه لمظهر من مظاهر الإقصاء والإكراه والإنسانية والتي تمثل حقيقة الغرب الخفية، وهو تأصيل أركيولوجيا المنظومة العقابية وموقع السجن بوصفه وسيلة حجز وعزل داخل هذه المنظومة، فمجتمع اليوم يعتبر السجن ملجأ بينما مجتمع القرن التاسع عشر فهو يفخر بسجنه التي تشبه الحصون وسط المدن ذاتها[3].

يتحدث "فوكو" عن نماذج كبرى للمجتمع العقابي تظهر أصولها العقابية في كل مرة شكلاً من اشكال السلطة، أحدها التوفيق أو السجن ويحدث تساؤل "فوكو" نقطة انطلاقه في ما يعرف السجن من توسع في نظام العقوبات على الأقل بالنسبة لمجتمعاتنا الغربية[4].

1- السيد ولد اباه، التاريخ و الحقيقة لدى ميشال فوكو، دار المنتخب العري، بيروت، ط1، 1994، ص 75

2- دفيد لوبرتون، أنثروبولوجي الجسد والحداثة، تر: محمد عرب صاميلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 84

3- عمر مهيبل، اشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص 236

4- ميشل فوكو، المراقبة والمعاقبة، المصدر السابق، ص 103.

يرى "فوكو" في كتابه المراقبة والعاقبة، وفقا للنظام القديم أن الجسد مع المحكومين كان ملكا للملك يصب عليه مفاعيل السلطة، أما الأنا صبح ملكية اجتماعية أي أنه تلمك جماعي ومفيدا ففرضت العقوبات على الجميع بهدف إخضاع أفراد المجتمع وتعديل سلوكه، فيقول "فوكو" فتلكن العقوبات معتدلة ومتجانسة مع الجرائم و ألا يحكم بعقوبة الموت إلا على المجرمين القتلة وان يلغي التعذيب الذي بنافي للإنسانية[1].

زاد الغموض حول السجن مع نظرية القانون الجنائي بعد التحولات الكبرى التي حدثت في نهاية القرن الثامن عشر، جراء التعارض بين التقنية العقابية الجديدة، أي السجن وبين طقوس التعذيب القديمة.

أصبح السجن في القرن التاسع عشر رغم تعداد المشاريع الإصلاحية للجزائية الميكانيزم الغالب ولن يبقى شيء سواه، كما لم يبقى شيء من فنون العقاب التي تم تشديدها خلال سنوات عدة فيرفض السجن نفسه وبقوة فأصبح قائما على رقابة دائمة لسلوكيات الفرد إصلاحها.

يعتبر "فوكو" السجن وسيلة للعقاب الوحيدة وذلك بشكل سريع وطبيعي، وفي سجون كبرى مثل سجن أمستردام أو سجن غلوستر في فيلاديلفيا[2].

تساءل "فوكو" لماذا أفشلت مؤسسة السجن في فترة ما من التاريخ ؟ وهو الأمر الذي ميز منذ البداية بين تطور القانون الجنائي والمؤسسة العقابية، فأصبح القانون يهدف الى المجرم كما أن منحرف أو مريض وأنه بدلا من عقابه يجب إصلاحه أو إشفاؤه أو إعادة تأهيله[3].

إن السجن لم يختلف في غايته التي وضع من أجلها باقي الممارسات للعقابية الأخرى فما هو إلا وجه من أوجه السلطة وآلية أريد منها الاستثمار في الجسد، وإن بشكل مغاير آلية متسترة خلف أقنعة الإصلاح والأسنة.

1. الجنون واللغة ند ميشال غوكو

[1]- ميشل فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر السابقة، ص 103.

2- فريدريك غرو: ميشال فوكو.

3- ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة، المصدر السابق، ص 37.

يتضح اهتمام "فوكو" باللغة بدءا من أولى مؤلفاته، حيث بين في تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي تعتبر النظرة الى الجنون رابطا إياها بالبعد اللغوي، فبعد أن كان يعامل في العصور الوسطى، معاملة شبيهة بتلك التي عوامل بها مرض للجدام، اللذان انتشرا ليفتحا المجال المرض جديد يضاهيهما في خطورته، والأمر يتعلق بظاهرة الجنون وهي ظاهرة ظلتا في حالة كمون لمدة قرنين تقريباً وتشكل حالة رعب كتلك التي أحدثها الجدام[1].

إلا أن هذه النظرة ستتغير مع بداية عصر النهضة، حيث يرجع "فوكو" سبب هذا التغيير الذي يتحدث عنه "فوكو" تعتبر نتيجة للصدام الواقع بين الترعتين النقدية والتراجيدية واختلافهما حول النظرة الى الجنون، وهو ما أدى الى تحريك الإحساس له وهو ما يوجد في أساس الصياغات التي تمت حوله في بداية عصر النهضة[2].

إذ أخذ الجنون مكانته في خطاب عصر النهضة من خلال التنازل المفرط للظاهرة الأدبية على اختلاف توجهاتها فقد كان ينظر للجنون في ارتباطه مع اللغة بشكل مباشر وهي ميزة يرى "فوكو" بأنها امتياز خاص منحه عصر النهضة لعنصر من عناصر النسق ويتعلق الأمر بالعصر الذي يتعاطى مع تجربة الجنون ضمن حقل اللغة [3] هذه القطعة الابتيمولوجية بين العصر الكلاسيكي وعصر النهضة تعتبر مفصل الإشكالية التي حاول "فوكو" معالجتها رابطا إياها بالبعد اللغوي.

بداية يلاحظ "فوكو" أن الجنون كان ماسوا خلف جدران الصمت للمطلق نظراً للرؤية السلبية التي طبعت وجوده. أما بحلول عصر النهضة، سيتبدل الوضع بشكل ملفت للانتباه، نتيجة للرؤية المخالفة لظاهرة الجنون، فبعد الصمت الرهيب الذي تميز به سيعيد عصر النهضة للجنون صوته[4].

من خلال الإبداعات الأدبية الوفيرة التي تمحورت أساسا حوله فقد شكل الجنون أساس جل الأعمال الأدبية التي انتشرت في ابتيمي النهضة و على الرغم من الاختلافات الجوهرية في

1- ميشل فوكو، تاريخ الجنون في العمر الكلاسيكي، المصدر السابق، ص28

2- المصدر نفسه، ص 49

3- المصدر نفسه، ص 50.

4- المصدر نفسه، ص 67

تصوير الظاهرة الا أن الجنون قد احتل في أعمال "سيرفانتش" و "شكسبير" موقعا هاما وذلك لأنه دون سند فلاشيء يرده الى الحقيقة والعقل، إنه يدل سوى على التمزق و من ثم على الموت[1].

وانطلاقا من هذا اصبح للجنون مكانة خاصة في الوسط الثقافي في عصر النهضة، بالرغم من النظرة السلبية التي مني بها، والنتيجة من هذا أن غدا يتمتع بوجوده على مستوى الخطاب وإن كان وجودا غير قار و غير ثابت على موقف و لم ينظر للظاهرة في جوهرها الحقيق لأن شخصية المجنون كانت مصدر إلهام في التصوير الأدبي، فأتخذ المجنون دلالات متعددة سواء في فن الرواية أو الأدب في شكله العام، وبالرغم من التباعد الحاصل بين الجنون في حقيقته وبين الصورة التي أعطيت له من طرف أدباء النهضة إلا أن "فوكو" يعتبره أمر ايجابيا بعد فترة الصمت التي طبعت بها ظاهرة الجنون من قبل.

أما بحلول العصر الكلاسيكي سيتغير الواقع الخطابي بشكل ملفت للانتباه فإن عصر النهضة قد أحيا ظاهرة الجنون بعد موتها ولو كان إحياء على مستوى الخطاب فقط فإن العصر الكلاسيكي سيأتي ليسكنه بقوة غريبة[2].

هذه القوة هي ما يصفها "فوكو" بقوة القانون الذي فرض سيطرته على ظاهرة الجنون بآليات سلطوية متعددة تهدف إلى إقصاء المجنون وتهميشه بدعوى خطاب العقل والطب،حيث ربط الجنون بحالات مرضية شتى.

استنادا لهذا الواقع السلطوي تعددت الخطابات واختلفت لكنها تهدف الى مقولة واحدة وهي الإقصاء الكلي للمجنون واعتباره من الشواذ في المجتمع، فكان من الضروري نبذه لحكم انه يشكل خطرا على النسيج الاجتماعي، فقد نظر للمجنون على انه آفة اجتماعية يجب القضاء عليها بشكل نهائي حتى على مستوى الخطاب.

[1]- ميشل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، المصدر السابق، ص 60.

2- المصدر نفسه، ص 67

يتضح إذن ان اللغة شكلت نقطة هامة في تحليل ودراسته عبر حقبة الزمنية التي مر بها، تحليل يعتمد أساسا على وصف أركيولوجي للخطابات التي صاحبت الظاهرة فقد سعى "فوكو" الى ربط الى جنون بمستويه الابتمولوجي، والانطولوجي كاشفا عن المستوى الاركيولوجي لخطاب الجنون، موجها التحليل صوب اللغة وبالضبط لغة الجنون فقدا احتلت اللغة المكانية الأولى ذلك أن الجنون وبالتدقيق تجربة تتجسد في لغة الهذيان[1].

[1]- الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشل فوكو، المرجع السابق، ص 34



الفصل الثالث

علاقة الجنون بالسلطة الطبية

1. علاقة الجنون بمولد العيادة
2. علاقة الجنون بالعلاج الطبي
3. عملية تحرير المجانين

1- علاقة الجنون بمولد العيادة:

يترك "فوكو الجنون في كتابة "مولد العيادة" على المرض وقوة العداء وهذا الكتاب دراسة عن النظرة العلاجية أو التحديقية ورغم أن فوكو قد هجر فكر التحديقية منذ ذلك الوقت إلا أن قد قصد بهذه الفكرة إلى فحص الأبنية الأعمق للدواء والمرض ودراسة المناقشات العياداتية والتقارير الطبية التي تنطوي عليها السجلات التاريخية والأدب العلمي – من منظور بنيوي.

ويحلل فوكو أشكال الدواء في القرن الثامن عشر على أساس من الصلة التي ربطت بين هذه الأشكال وأنواع المرض التي كانت تنتاب المريض فلقد كان لهذه الأنواع من الوضع الطبيعي ومن العمليات التصورية ما أتاح للأطباء السبيل إلى عراقية وتشخيص العلاقة المتبادلة بين المريض والمرض في مناخها الطبيعي.

ويصل فوكو مكان الممارسة العلاجية وحيزها من ناحية وحالة المعرفة التي تغيرت نتيجة حاجات اجتماعية من ناحية ثانية فيجد أن الدواء قد انتشر مع اللغة الخاصة به . بعد أن تزايدت حاجة مرضى إلى الرعاية والمستشفيات والأطباء بعد الثورة الفرنسية [1] وبعد أن أصبح الأطباء مضطرين إلى خلق مزيد من المعرفة العلاجية والدوائية في حديثهم عن انتشار المرض وتحولاته.

وعلى أي حال فلقد احتل الأطباء مركزا متميزا نتيجة الحاجة إلى تجريب الدواء وتوحيده ونشره في مجتمع كان قضى لتوه على التميز الطبقي ولكن المساواة السياسية آدت إلى ازدحام المستشفيات مجالا لتفريخ المرض وانتقاله.

وإزاء هذا الوضع غدا إرسال المرضى إلى عائلاتهم امراً مرغوبا فيه وتغيرت البلاغة الثورية وتقاربت حاجات الأطباء والسياسة حيث تحولت النزعة الإنسانية إلى نزعة تضحية.

وكان ذلك إذانا بحقبة جديدة " من المعرفة عند فوكو فلقد تغير مكان العلاج وانتقل المرضى إلى خارج المستشفيات وأصبحت المستشفيات ذات توجه بحثي وأخذ الأطباء الذين كانوا يدينون الدولة لأهمانا لها ولما ينتج عن هذا الإهمال من تزايد الأوضاع المنتجة للمرضى".

[1]– أفاق العصر، عمر البنيوية، تأليف ادثاكريزويل، تر: جابر عصفور، ط1، 1993، دار سعاد الصباح، الكويت، ص ص 302-304

أخذ هؤلاء الأطباء يحثون على تشريع القوانين وتقديم الدعم المالي والمناخ الملائم للبحث الطبي وكان ذلك مولد العيادة عند فوكو.

وفي داخل هذه العيادة كان تبرير ذلك على أساس أن الأغنياء يدعمون علاجهم وعلى هذا الأساس أن العلم فيما قيل لا يهدف الى رفع احد دون غيره.

- بدأت المعرفة تستنبط تجريبيا منذ ذلك الوقت وصارت تختبر في عيادة قد أعيد بناؤها على نحو جذري ويقارن فوكو بين محاضرات الأطباء عن المرض وأوصاف الفلاسفة لبلاد لم يروها قط مكنيا إياهم بالأعمى الذي عادت إليه الرؤية فجأة[1].

وفي نفس الوقت عملت العيادات على مراقبة التكاثر المهني وضبطه وبدأت التراتب الاجتماعي والمهني المؤسس على المعرفة العلمية.

ولقد أنتجت هذه العوامل مجتمعة شفرات جديدة للمعرفة كما أنتجت قوانين جديدة لصالح العلاج فأصبح تشريح الجثث على سبيل المثال فعلا قانونيا نتيجة إلحاح الأطباء الذين تمكنوا من التحديق في الموت. وبقدر ما شكلت هذه الظروف أساس المعرفة الجديدة عند فوكو فإنه درس هذه المعرفة من خلال التعارضات البنيوية.

- ومما لا شك فيه أن أي تلخيص لأفكار فوكو ينتهي الى نوع من الظلم للبناء المعقد لأفكاره او البناء المركب لمهنته الفلسفية .ولكن يمكن لنا أي نفي عبقرية فوكو الغريبة والمقلقة نوعا هذه العبقرية التي لا تلتقط إلا الغريب والشاذ لتجعل منها شيئا محترما صادقا.

- ويرى فوكو أن هذا التغيير الحاد كان واضحا فيما كتبه "برونيه" الذي ركزت معالجته على التركيب العضوي للمرض وعلى الطريقة الجديدة في النظر وهذا ما قال عنه فوكو أن الانقطاع دنين خطاب بالمعنى حد بين الأطباء وملاحظاتهم قد انتقلت من منهج التشريع الإكلينيكي إلى منهج الشرط[2].

1- زكريا ابراهيم : مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، القاهرة، 1976، ص 98

2- هشام صالح: ميشال فوكو، فيلسوف القاعة الثامنة، مجلة الكرمل، العدد 13، 1984، ص 7

2- علاقة الجنون بالعلاج الطبيي:

يؤرخ "فوكو" إبتدءا من سنة 1793م سنة تعيين الطبيب فيليب بينال (1745-1826 philippepinel)رئيسا لإدارة قسم المجانين في مستشفى "سالبا تريير" (salpetriere) تزامنا مع الطبيب الأنجليزي "وليم توك" (1983–1896 williammunfoct) في انجلترا في مصحة "يورك" وكان ذلك في عام 1796م حيث رأى بينال أن هؤلاء المتلبين شرسون فقط لأنهم حرموا من الهواء والحرية[1]. فقد اعتبر هذا الموقف بمثابة التحرير بمثابة التحرير للمجانين بعد ما عانوه من استغلال جسدي في العصر الكلاسيكي، فأصبح ينظر إلى "بينال" و "توك" على أنهما المحرران أولهما اللذان أخرجا المجنون من دائرة للإبتلاب إلى الحرية لكون "بينال" قام بتعديلات متعلقة بطريقة التعامل مع المريض من خلال وضع منهجية جديدة في العلاج وأصبحت بعد ذلك تعرف بقوانين بينال (Les lois de pinel)حيث اعتمدت منهجية على ثلاث خطوات أساسية:

1- الصمت والإنصات لما يحوله المريض بكل حرية ودون أية ضغوطات تمارس عليه.

2- الاعتراف أمام المرأة حيث يتمكن المجنون من خلال هذه الخطوة التعرف على ذاته بذاته.

3- المحاكاة الأبدية وتكون بإخضاع المجانين الموجودين في الماريتان إلى محاكمة من نوع آخر أنها محاكمة تخضع لثنائية الطب العلاج اذ تم تحويل الطب الى عدالة والعلاج الى قمع[2].

بالرغم مما قام به "بينال" من تغيير في معاملة المجنون. أن "فوكو" لا يرى في هذه الطريقة المستحدثة تحرير اللذات بعد اضطهادها بل أنها آلية متعصبة متخفية وراء قناع الطب والعلاج حيث يصفها في قوله :"خرافات "بينال" و"توك" تنقل قيما أسطورية يتقبلها الطب العقلي لاعتبارها بديهيات طبيعة ولكن كان وراء الأساطير ذاتها عملية أو بالأحرى سلسلة من العمليات نظمت بصمت العالم المارستاني والطرق العلاجية مع المجنون في الوقت ذاته[3].

فقد أسس "بينال" و"توك" للنظرة إلى الجنون من زاوية أخلاقية ودينية على السواء بدعوى تحرير المجنون من الاستلاب الذي كان يعيشه.

---

[1]- ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، المصدر السابق، ص 472

2- المصدر نفسه، ص ص 504 - 506

3- المصدر السابق، ص 488

وعلى هذا الأساس يبني "فوكو" تصورا مخالفا لمجموع الإصلاحات التي قام بها "بينال" حيث يقرؤها على أنها قمعية بالدرجة الأولى صحيح أن المجنون حرر من القيود والأغلال التي كانت مفروضة عليه لكنه قيد بأغلال من طبيعة مغايرة فمارستان العصر الوصفي الذي يعود ظرف تأسيسه إلى "بينال".

ونقطة الاشتراك بين عمل كل من "توك" و"بينال" تكمن في تلك السلطة المطلقة المعطاة للطبيب فهو من يحدد أن كان الشخص المجنون أم لا[1].

فبداية من القرن التاسع عشر سيحال الجنون للدراسة الوضعية في مؤسسات الطب النفسي نظرا لتغير حول الجنون بوضعه في إطار الذي يجب أن يوضع فيه كونه واحدا من الأمراض النفسية التي تختص بمميزاتها وخصائصها خلاف للأمراض العضوية[2].

فظهر ما يعرف بالطب العقلي الذي وضع "فرويد" دعائمه الأساسية حيث أدخل الجديد في مجال الدراسات النفسية من خلال إخراج الطب العقلي من دائرة الطب العام فقد أخذ "فرويد" ثنائية الطبيب المريض على محمل الجد، وأهم ما قام به نظر"فوكو" هو قضاؤه على الصمت غير أن "فوكو" يقرأ إنجاز "فرويد" من جانبه السلبي أنه لم يستطع سماع صوت اللاعقل ولا فك رموز وعلامات المجنون من أجلها فبإمكان التحليل النفسي أن يفك بعض أشكال الجنون ولكنه يظل غريبا عن العمل المستقل للاعقل[3].

يواصل "فوكو " كشف النقاب عن مختلف مظاهر الإقصاء والتهميش التي طالت الذات الغربية بتطبيقه لمبادئ المنهجية الأركيولوجية على المسيرة التي مرت بها النظرة الطبية من خلال مؤلفه "مولد العيادة" الذي ظهر سنتين بعد كتابة تاريخ الجنون "حيث ناقش "فوكو" من خلال هذا المؤلف – كما ورد في فاتحة المقدمة – الرؤية النظرة المكان اللغة ومفهوم المرض هذه المفاهيم شكلت القاعدة الأساسية للكتاب الذي حمل كعنوان فرعي له "اركيولوجيا النظرة الطبية".

1- ميشال فوكو، المصدر السابق، ص 488.

2- المصدر نفسه، ص 510

3- ميشال فوكو، هم الحقيقة، تر: مصطقى المنساوي، سلسلة بيت الحكمة، منشورات الاختلاف، ط1، 2006، ص 213

إن مولد العيادة يعتبر بمثابة حلقة تكملة لما تم تحليله في تاريخ الجنون حاول من خلاله فوكو فحص البنى الأبستمولوجية لكل حقبة زمنية مرت بها التجربة الطبية بدراسة شروط إمكانها مسلطا الضوء على مفهوم النظرة (La vision) فكيف نظر الى المرض من طرف الطبيب[1].

يبدأ "فوكو" في بيان أهم الخصائص التي سادت النظرة الطبية في العصر الكلاسيكي، حيث ساد الى رد الأمراض الى جنسها الحقيقي مبتعدا في ذلك عن مختلف العلل والأسباب التي أدت إلى ظهوره.

أما في القرن التاسع عشر فقد حل نوع جديد من أنواع الطب وهو طب الأنسجة أو الطب التشريحي، فأنتقل عمل الطبيب من متابعة الأعراض الدالة على المرض الى الكشف عن الأسباب الخفية الحقيقية التي أدت إلى حدوثه ويذكر "فوكو" في هذا السياق الأعمال الهامة التي قام بها الطبيب الفرنسي المختص في مجال الطب التشريحي "ماري فرانسوا كرافييه بيشا" واصفا رؤيته للطب بأنها رؤية عيادية لأنه أعطى أولوية إبستمولوجية مطلقة لرؤية المكان[2].

3- عملية تحرير المجانين

أثار "فوكو" إلى أنه من الصعب تحديد الإرهاصات الأولى التي بدأت من خلالها عملية تحرير المجانين التي أصبح لها سند قانوني، وذلك بعد قيام الثورة الفرنسية، ومع هذا فإنه يؤكد انه ثمة بوادر لظهور هذه العملية قبل بداية هذه الثورة ولهذا قد قام بتقسيم هذه العملية الى مرحلتين هم: مرحلة تعود الى ما قبل الثورة وأخرى تعود إلى اندلاع الثورة الفرنسية.

* المرحلة الأولى:

أ) **ما قبل الثورة الفرنسية** اختلفت في هذه المرحلة الفكرة القائلة بضرورة الحجز، وإن كانت هذه الفكرة لم تؤد إلى استئصال الرغبة المتجددة في الإساءة إلى المجانين حسب رأي "فوكو" في ذلك "ما اختفى خلال القرن السابع عشر ليس الصرامة الإنسانية التي يعامل بها المعتوهون، وإنما بديهية العزل ارتبطت عملية تحرير المجانين وغيرهم من المحتجزين بالعوامل الاقتصادية حسب

[1]-الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص 159

2- المرجع نفسه، ص 161

ما أشار إليه فوكو مثل الحاجة إلى اليد العاملة الرخيصة، ولهذا اتحد الكثير من المفكرين والاقتصاديين نادوا بإطلاق سراح المحتجزين داخل السجون والمستشفيات من بينهم نجد المفكر.

- ميرايو* MIRABEAU: كان متشددا وراقيا لعملية الحجز أكثر من رفض المعزولين لحالتهم هذه.

حيث أن الاهتمام بالمجانين في تلك الفترة كان مرتبطا بالعوامل الاقتصادية لا العوامل الصحية أو الإنسانية كما يرجع فوكو السبب الأول للحجز هو انتشار البطالة التي ينبت من أجلها السجون والمستشفيات.

أما ظاهرة الانتشار السريع للمصانع فقد نتجت عنه الحاجة إلى استغلال اليد العاملة الرخيصة وهذا هو العامل الأساسي الذي دفع إلى المبادرة في تحرير كل من أحتجز.

ب) **المرحلة الثانية: ما بعد الثورة الفرنسية** يؤرخ "فوكو" لهذه المرحلة انطلاقا من قيام الثورة الفرنسية التي نادت بحقوق الإنسان وحفظ كرامته قال "إنها التحقيقات الكبرى المنصوص عليها من طرف التجمع الوطني والجمعية التأسيسية الدستورية، وذلك الإقرار بحقوق، إذ أن لا أحد من الناس يمكن أن يكون محتجزاً أو موقوفاً إلا من الحالات وفي الأشكال التي ينص عليها القانون" على الرغم أن القانون نص بصريح العبارة عن تحريري المجانين المحتجزين والمجرمين كذلك.

أكد "فوكو" أن القرار في 1791/07/22 على جعل العائلات مسؤولة عن مراقبة المعتوهين، لابد أن نسجل ملاحظتين أساسيتين فيما يخص عملية تحرير المجانين، فالملاحظة الأولى مفادها أن هذه العملية ارتبطت بحدث علمي؛ يستخلص في ظهور نظرة تربط بالجنون بالمرض. وكان لعلم التشريح أثر كبير على ذلك، حيث طرحت مشكل تشريح الجثث[2].

يبدو أن علم التشريح الذي كان له الفضل في تطوير النظرة الطبية وجعلها تنتقل من كونها وصفية تصنيفة إلى تطبيقة مع الطبيب "بيشا Bichat" ما أشار "فوكو" إن القطعة الكبرى في تاريخ الطب الغربي بدأت بالتحديد في اللحظة التي أصبحت فيها التجربة العيادية ذات النظرة التشريعية.

[1]- ميرايو: عالم اقتصاد فرنسي ولد عام 1715 وتوفي عام 1794.

2- بول فيين: أزمة المعرفة التاريخية، فوكو وثورة في المنهج، تر: وتقديم: إبراهيم فتحي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1992. ص 92

أما الملاحظة الثانية، فهي تتعلق بتأثير الأطباء الأوروبيين وانبهارهم من مكسب الحضارة الإسلامية في الميدان الصحي كالطريق الخاصة بمعاجلة الجنون.

وهذا ما جعل مستشفيات المسلمين تستقطب كبار أطباء الغرب أمثال "بنييل" الذي أعجب كثيراً بالطرقة الهندسية التي تمت من خلالها بناء المؤسسات العلاجية.

لم تكن عملية تحرير المجانين مرتبطة بحقوق الإنسان وأحداث القطائع بين العصور الماضية فقط. وهذا يتجلى لنا من كون حتى الفلاسفة الذين ألهموا تلك الثورة لم يسلم من تهمة الجنون فيها ونذكر على سبيل المثال من بينهم روسو وفولتير وهذا ما يدل على أن مفهوم الجنون لم يتخلص من خضوعه لاعتبارات سياسية أفضت بالضرورة إلى الاضطهاد[1].

حيث أن العزل الكلاسيكي داخل أراضي أوروبا أما العزل الذي بدأ بعد الثورة الفرنسية فقد كان في مجمله يتم خارج حدود فرنسا وغيرها من الدول الاستعمارية وبالتالي لم يمكن اعتباره نوع من النفي. يرى "فوكو" أن الأطباء قد أبقوا على ممارسة الإكراه على المجانيين على الرغم من المبادرة بتحريرهم.

لم يتمكن العصر الحديث من إختراق البنية الفكرية الأوروبية التي تأسست على معاداة الجنون حسب رأي فوكو و لم يتمكن من استئصال علاقات الإكراه القائمة بين الجنون والمكان الذي يحتجز فيه.

رفض فوكو بشدة الإكراه الممارس على المجنون سواء كان معنويا كجعله يقترن بمفاهيم تعبر عن رغبة عميقة في تبيان آليات الإقصاء والتهميش أو مادي كالاعتداء عليه بالضرب، وبهذا انتهى "فوكو" إلى أن الاعتقاد بأن الجنون كامن في الإبداع بل هو محركه الرئيسي[2].

يجب أن تنتبه إلى فكرة مفادها أن بعض أشكال الجنون تقطن بطريقة غريبة في الأعمال العظيمة للاعقل. فمنذ القرن التاسع عشر لا تظهر حياة اللاعقل إلا في اللامعة تلك الأعمال التي قام بها "هلدرين".

1- المرجع السابق، ص ص 94-95

2- عبد العزيز العيادي: المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1994، ص 22

يتبين لنا من خلال هذا التصريح تجاوز "فوكو" لذلك الأرج الجاهز فيما يتعلق بجهود علماء النفس معتبراً أن ذلك لا يدخل سوى ضمن ما يشبه عملية الترويج لإنجازاتهم، وذلك عن طريق تلك النظرة السطحية للأمور[1].

ليس المهم إذن تحرير المجنون من قيوده المادية سلاسل أو قضبان وإنما تحرير معنوياته التي قد تحتوي على ابداع خلاق لا يمكن أن يتوفر سوى في تشريعة المجانين الذين يعتبرهم أناسا قد يكون جنونهم ضرب من ضروب العبقرية الفذة التي تخدم الإبداع الفني.

يجب ان تنتبه إلى فكرة مفادها أن بعض أشكال الجنون تقطن بطريقة غريبة في الأعمال العظيمة للاعقل فمنذ القرن التاسع عشر لا تظهر حياة الاعقل إلا في الأعمال اللامعة مثل تلك الأعمال التي قام بها "هلدرين"[2].

1- جيل دولوز: المرعفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1987.

2- كلود كيتيل: تاريخ الجنون – من العصور حتى يومنا هذا – المرجع السابق، ص ص 25-30


خاتمة

اختلف تعامل الحضارات مع ظاهرة الجنون عبر العصور، فمن الامم من ابعدت مجانيها، ومنها من احتفظ بهم وعزلهم، ومنها من كرمهم واعتز بهم واوجد لهم القاعات والمسارح للتعبير عن اراءهم ومنها من حاول علاجهم، ونتيجة لهذا التباين في علامة المجانين.

حاول ميشال فوكو، دراسة ظاهرة الجنون لاستكشاف وبيان سبب اختلاف النظرة إلى المجانين، لقد كان "فوكو" حاضرا بقوة في مختلف المشاريع النهضوية المعاصرة فما قدمته الاركيولوجيا، من جرأة على مستوى النقد، كان محل تأثير في المناخ الفكري العربي وخصوصاً الاقصاءات التي قام بها "فوكو" فيما يخص المؤلف والقداسة التي تحاط بها النصوص إذ تعتبر من أهم الحواجز الابستولوجية التي عاني منها المفكرون العرب فكانت الأريكيولوجيا بمثابة المعبر الأمن الذي يحقق النقلة أو القفزة عن مختلف تلك السلطات التي يمارسها النص على الذات.

تعتبر المراقبة والمعاقبة والانضباط في نظر "فوكو" تقنيات حديثة للسلطة فهي تحث على الإنتاج، حيث تخلق السلطة معايير السلوك من خلال المراقبة وفرض الالتزامات وتطوير العادات تعد المراقبة في نظره ليست مجرد نظام ونتاج للسلطة كما هو شائع، حيث أن المجتمعات التي تشتغل بآليات رقابية او سلطة الضبط، حيث يتم النظر إلى المراقبة باعتبارها مجموعة من التقنيات المستقلة في ذاتها.

يحدد "فوكو" مفهوم الجسد بوصفة آلة ونوع فالجسد آلة يختص بتطويع الجسد وتنمية قابليته وإبراز قدراته. أما الجسد النوع ينهمل كقاعدة للسيرورات البيولوجية لتحديد التحولات والولادات ومعدل الوفيات ومستوى الصحة ومعدلات الأعمار ويبين لنا "فوكو" كيفية اختراق السلطة للجسد، فهو يعتبره تلك المنطقة التي تقوى على التعبير عن الحياة وإليها تتجه التقنيات الحديثة للسلطة.

يعطي لنا "فوكو" بالإضافة إلى آلة تتمثل في تكنولوجيا عقابية تأديبي ة تهدف إلى ضبط الأجساد وترويضها في السجن. ويتحدث "فوكو" عن آلة العزل والاحتجاز الكبير الذي ظهر في للعصر الكلاسيكي وتكلم عن ايجابياته وسلبياته وأيضا عن اختراق السلطة للمستشفى العقلي بهدف ترويض وتطويع الأجساد المريضة عبر تقنيات حديثة وعلاجها وفق طرق ومناهج علمية تربوية.

يمكن القول إجمالا، أنه مهما اختلفت الآراء حول "ميشيل فوكو"، إن كانت ايجابياً وسلباً إلى أنه يظل نقطة إبداع في تاريخ الفكر البشري عموماً، وهذا ما ثمنته مجموعة النصوص الضخمة والدراسات المتنوعة التي بحث في فكرة مختلف الجوانب،

لقد اعترف فوكو بأن كتابة حول الجنون هو دراسة تاريخية للشروط الثقافية والسياسية والاقتصادية والمؤسساتية في فترة معينة من تاريخ الغرب وهذه الدراسة هي في جوهرها دراسة تاريخية هدفها هو الكشف العيني عن تلك الدينامكية التي جعلت ممكنة هذا التصور "تاريخ الجنون في ذاته. في حالته الأولية قبل أن يقع المسك به من طرف علم النفس" إنها مهمة مطابقة في أساسها لمهمة المؤرخ.

أما من ناحية المضمون الفكري فقد عبر الفيلسوف "غوييه" عن تذمره من الاستنتاجات والتأويلات المتسرعة أو حتى المخاتلة التي أعطاها فوكو للنصوص المستخدمة لقد تساءل هل أن فوكو يقدم فلسفة النص الذي يستشهد به أم أنه يتفلسف على النص "غوييه" أيضا ينكر على فوكو التفكير بطريقة الإستعارات الذي أفضى به إلى تشخيص وتجسيد ظاهرة الجنون ثم يدرج في العمق نهج فوكو التاريخي في الذي هو خارج معايير كتابة تاريخ الجنون مشخص فهو يتطور من خلال مفاهيم أسطورية القرون الوسطى -النهضة- العصر الكلاسيكي الإنسان الغربي القدر العدم ذاكرة الإنسان.

- لكن الاعتراضات الدقيقة بخصوص الجانب التاريخي ومدى صحة أحداث أوردها فوكو لتدعيم أطروحتة حول الجنون فقد تكفل بها المؤرخون المحترفون.

الاعتراض الأول يحبس أطروحة فوكو التي تذهب إلى العصور الوسطى ومن بعدها عصر النهضة في أوروبا قصة الجنون بتعامل رصين ولطيف في مقابل التصرف القاسي الذي ساد في العصور الحديثة مع بروز النظام العقلاني.

هناك شكوك عديدة حول اعتبار فوكو العصر الكلاسيكي أي العصر الذي برزت فيه وتجذرت مؤسسة المعتقل الكبير عصر لا مثيل له في طريقة تعامله مع ظاهرة الجنون وبالأخص حينما وقع تحويل مستثنيات الجذام إلى مصحات عقلية بالإستناد إلى نظرة فيزيولوجية تتمثل على أنه عرض مرضي مشابه للأعراض المرضية الأخرى.

إلا أن السؤال الذي يتبادر أذهاننا هو: من أعطى لفوكو الحق في الكلام عن الجنون والمجانين وهو واحد من العقلاء، أليست نظرة " فوكو" للجنون في حد ذاته تمثل سلطة قمعية للمجانين واستئصالا لذواتهم وتميزها، ألم يكن من الأجدر أن ندع المجنون يعبر عن نفسه دون أن نضع أغلال الوصاية على يديه ؟ سيعتبر هذا الكلام الأخير عند غالبية من يطلع عليه ضرباً من الجنون، لكن الكثير ممن اعتبروا مجانين في زمانهم، أثبت تقادم الزمان نفاذ بصيرتهم ورجاحة عقلهم، ولذا فلنتريث في أحكامنا على ذواتهم وعلى الناس.


قائمة المراجع

1- المصادر:

-ميشال فوكو: المراقبة والمعاقبة (ترجمة على مقلد، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1990.

- ميشال فوكو: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، (ترجمة سعيد بنكراد)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1،2006 .

-ميشال فوكو: حفريات المعرفة، نشر، سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2005.

-ميشال فوكو: هّم الحقيقة، (ترجمة مصطفى المنساوي)، سلسلة بيت الحكمة، منشورات بيت الاختلاف، ط1، 2006.

- ميشال فوكو: يجب الدفاع عن المجتمع، دروس ألقيت في الكوليج دي فرانس، ترجمة الزواوي بغورة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2003.

2- المراجع:

- الترواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشل فوكو، الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2001،

- إدغار موران: منهج الإنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2009.

- إديف كريزويل: عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور، دار سعاد الكويت، ط1، 1993

- الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 2000.

- أوبيرد ريفوس وبول رابينوف، ميشال فوكو، مسيرة فلسفية، ترجمة جورج أبي صالح، مراجعة وشروحات، مطاع صفدي، مركز الانصاء القومي، بيروت. لبنان.

- بسام حجار، ميشال فوكو، صورة جديدة للمثقف الغربي، مجلة الفكر العربي، العدد3، 1984.

- بليز باسكال، خواطر، ترجمة ادوارد البستاني، سلسلة الروائع الإنسانية، اللجنة اللبنانية للترجمة الروائع، بيروت، لبنان، 1972، الخاطرة، رقم 331.

- بول فيين: أزمة المعرفة التاريخية، فوكو وثورة في المنهج، تر: وتقديم: إبراهيم فتحي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1992.

- جون سكوت: خمسون عالما اجتماعيا أساسيا، المنظرون المعاصرون، ترجمة محمد محمد حلمي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، لبنان، ط1، 2009.

- جيجيكة إبراهيمي: ميشال فوكو – حفريات الإكراه في الفلسفة، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2011.

- جيل دولوز: العرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1987.

- دفيد لوبرتون، أنثروبولوجي الجسد والحداثة، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،

- روي بورتر: موجز تاريخ الجنون، ترجمة ناصر مصطفى، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، كلمة ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، ط1، 2012.

- زكريا ابراهيم : مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، القاهرة، 1976،

- عبد السلام بن عبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر مجاورة الميتافيزيقا، دار طوبقال للنشر، المغرب، ط2، 2000.

- عبد العزيز العيادي: المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1994،

- عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشال فوكو، دار المعارف، ط1، 1989،

- عطيات ابو السعود، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين وبحوث فلسفية أخرى، منشأة المعارف، طباعة شركة الجلال للطباعة، مصر،

- عمر مهيبل، اشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار البيضاء، ط1، 2005.

- عمر مهيبل، البنوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1999.

- كلود كيتل: تاريخ الجنون – من العصور القديمة وحتى يومنا هذا – ترجمة سارة رجائي وكريستينا سمير فكري، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2015.

- مجموعة من الكتاب، مسارات فلسفية، تر: محمد ميلاد، دار الحوار، ط1، 2004، اللاذقية، سوريا.

- محمد على الكردي: قضايا ووجود فلسفية، بطاي- فوكو- ديد رو، دار ومطابع المستقبل، بيروت، لبنان، ط1، 1989.
- محمد علي الكردي: نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ط، 1992.

III) المعاجم والموسوعات

- اندري لالاند: موسوعة فلسفية، المجلد الاول، ترجمة خليل احمد وأحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2007،
- جميل صليبا : المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية و الفرنسية والانجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج1، ط، 1982،
- معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، المجلد الأول، بيروت، لبنان.

IV) المجلات

- هشام صالح: ميشال فوكو، فيلسوف القاعة الثامنة، مجلة الكرمل، العدد 13، 1984،


فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات: